التعاطف
مع الإمام الحسين عليه السلام
(موجباته وموانعه)

محمد علي باقري

التعاطف
مع الإمام الحسين عليه السلام
(موجباته وموانعه)

محمد علي باقري

التعاطف
مع الإمام الحسين عليه السلام
(موجباته وموانعه)

محمد علي باقري

الطبعة الثانية

١٤٤٥ هـ ـ ٢٠٢٣ مـ

للتواصل:
E-mail: muddakerat@gmail.com

بســـــم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

أمّا بعدُ

كان هـذا في الأساس مـا كنت قـد تحـدثت بـه في (مسجد البلوش) يـوم الجمعة ٢٨ (أو٢٩) ذي الحجـة/ ١٤٠٨ تنبيهـا ودعوة إلى اجتناب ما يصـدر عن بعض المؤمنين في ذكرى استشهـاد الحسين عليه السلام من أقوال وأفعـال تُنتج حواجز في نفوس الناس اتجـاهه وتبعـدهم عنـه، على خلاف ما كانت شهـادته قد أفرزته في حينهـا من كسر الحواجز النفسية الموجودة ضده

وظننت في نشره المكتوب نفعا فحاولت صياغته لذلك، فأصبح هذا الذي يكاد لا يشبه ذلك الذي كان سواء في المحتوى أو الأسلوب

هـذا وإن أحـد الأعزة كان قد عرض الحديث على بعض من يوثق بهم فأبدوا ملاحظات نافعة أخذتُ بقسم كبير منها فكانت التعليقات التي كنت أتجنبها في البدء مخافة التطويل والتعقيد وتشتيت ذهن القارئ، وكان هناك بعض التعديلات أيضا في متن الحديث...

ومن الملاحظات ما كان الأخذ بها يُعدي الحديث طورَه ليصبح حديثا شاملا عن مسيرة الحسين عليه السلام، فلم يسعني توضيحها إلا باختصارٍ كاد أن لا يُغني شيئا

ومن الملاحظات التي لم أستطع الأخذ بها ولو باختصار ما يرتبط بأسناد بعض النصوص المذكورة في الحديث، والذي هوّن أمر هذه الملاحظة أن النصوص المذكورة ليست مسندة إسنادا صالحا إلا ما ندر ولم يُجعل ذلك النادر أساسا للإثبات أو النفي في الحديث، وما جُعل كذلك فقد شرحت أمره بمقدار ما يتناسب مع وضع هذه الأوراق

وعلى أي حال فإن لِما تلقيت من ملاحظات كان أثر على صياغة الحديث، كما وأنها قد أشعرتني بعظيم نعمة اللّه حيث وجدت أن عيونا بصيرة تراقبني برحمة لئلا أزلّ أو أزيغ، فأحسست بطمأنينة لا تقدر بشيء ...

فشكرا لك اللّهم على ما أنعمت راغبا في أن تتمّ عليَّ نعمتك بأن تتوفاني مسلما وتلحقني بالصالحين، وأن تجازي هؤلاء المؤمنين خير ما تجازي معينا على البر

هذا وراجعت الموضوع بعد ذلك وعملت فيه ـ هنا وهناك ـ شيئا من التعديل، كما زدت فيه نقاطا مؤثرة على مجرى الحديث

والحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الهُداة الطاهرين

محمد علي باقري

٢/ محرم الحرام / ١٤١٨

منطلقات وتنبيهات

أذكر أمورا في المقدمة أرى التنبّه لها نافعا، بل ضروريا، وهي:

(**ألف**) من الأصول الموضوعة [١] التي قد افترضتها في هذا الحديث «**إيمان القارئ المسبق بإمامة الحسين عليه السلام بما لها من جذور وامتدادات عقائدية**» فافترضت إذن أنه يجد في نفسه الحاجة إلى معرفة الحسين عليه السلام للتعرف على صراط اللّه الذي يريد سلوكه، فهنالك قد يلتقي بهذا الحديث فيساعده في العثور على بعض الإجابة لتساؤلات موجودة بصورة طبيعية في نفسه ومن ثَمّ في ذهنه، فيساهم في بلورة معالم الدين الذي يبحث عنه، وتوضيح المؤشرات الرئيسية لسبيل اللّه تعالى الذي يسعى في سلوكه

فلو لم يتوفر في القارئ ذلك الأصل المفترض فمن الطبيعي إذن أن لا ينفعه الحديث نفعا صالحا ...

ب) وافترضت كذلك معرفة القارئ وإيمانه بأن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن الحق لا يُعرف بالرجال وبالناس، وأن المرء لا يستطيع معرفة الحق إلا أن تكون نفسه حرة مستقلة عن التأثر بالناس واتجاهاتهم ...

---

[١] الأصول الموضوعة هي المقدمات التي يتوقف البحث على افتراض تحققها مسبقا، حيث أن الباحث لا يستطيع أن يناقشها ويثبتها، أو يتأكد من وجودها حين البحث، فيفترضها مسلَّمة باعتبارها مبحوثة ومثبتة في بحث آخر، أو لكونها محتملة على الأقل... وهذا ضروري في أي بحث من البحوث العلمية بشرح ليس مجاله هنا ...

ومضافا إليه افترضت: أن القارئ يجد في نفسه من القوة ما تصونه فعلا وفي الواقع عن التأثر بالناس ونظرتهم وإيحاءاتهم ووسواسهم الخناس ... فهنالك قد ينفعه هذا الحديث الذي يصطدم ـ بدرجة أو أخرى ـ بالناس وأساليبهم ...، ولو لم يكن القارئ كذلك فإني أرجح له أن يجتنب هذا الحديث الذي قد يضره بدل أن ينفعه ...

ج) وأود افتراض أن القارئ ملمّ بالأصل الذي أعتقده وأبني عليه، والذي أراه مهما جدًّا في البحث السوي عن الحقيقة، وهو أن (**معرفة الحق**) لا تقاس ضرورتها على أساس من مردودها العملي المباشر خارج النفس [٢] ...

أجل إني إنما أود افتراض هذا فحسب، لأني لا أستطيع أن أفترض فعلاً أن يكون القارئ قد استطاع التعرف على هذا الأصل المهمل المجهول جدًّا، وتمكّن من تجاوز هذا المنزلق الحساس الدقيق الخطير الذي ابتلع كثيرا من الناس ... فليس أمامي إلا تكلُّف الافتراض، أو عدم نشر هذا الحديث، بل عدم التحدث بأي حديث فكري، إذ أن كل حديث من أحاديثي الرئيسية ينطلق من أن الحق الواجب معرفته لا يمكن العمل به وتطبيقه في الخارج تماما، وإنما الممكن الواجب هو السعي إليه، فالذي يجب أن يُنظر فيه إلى الواقع العملي في الخارج ويُبرمَج على أساسه هو السعي وكيفيته، لا

---

[٢] لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (١) في قسم التعليقات

أصل المعرفة ومقاييسه...، فبما أني أريد التحدث بشكل عام، وأريد نشر هذا الحديث فتكلّفت الافتراض المذكور ... هذا بالإضافة إلى أني أجد في بعض المؤمنين أنهم منتبهون إلى هذه الحقيقة ومُلِمّون بها ـ بدرجة أو أخرى ـ

وعلى أيّ حال فلو لم يكن القارئ مُلمّا بهذا الأصل معترفا به لبحَثَ عن صواب أي موضوع وبطلانه في مردوده العملي ومدى تقبل الناس له، الأمر الذي يسمى بـ «الواقعية» في كثير مما يقوله الناس ويكتبون ... فمن الطبيعي إذن أن يرى هذا النوع من الأحاديث لغوا من القول الذي يجب الإعراض عنه...، وكم من مقال حق لم يجد الناس فيه «الواقعية» بالمعنى المذكور فأهملوه، أو لم يستطيعوا أن يتقبلوه، أو حين وجدوا أن الواقع العملي لا يستجيب له الاستجابة المباشرة تنازلوا عنه وتركوه ...

د) سيجد القارئ في هذه الصحيفة نقدا لنصٍّ في كتاب، أو عتابا موجها لمؤلفٍ ...، ولم أكن أفعل هذا وذاك إلا بافتراض أن القارىء سوف لا يعتبر ذلك النقد تفنيدا للكتاب كله، ولا العتاب تجريحا للمؤلف، فقد يكون الكتاب قيّما في نفسي رغم نقدي لبعض فقراته، ويظل المؤلف عظيما في صدري وإن وجدته مخطئا بصورة أو بأخرى. ومن المعروف أن لا عصمة لأحد غير أناس معدودين، وبما أنه لم يثبت أنّ أحدا منهم قد ألف كتابا، فلا يوجد

كتاب معصوم غير كتاب اللّه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

هذا ومن المتوقع أن يكون القارئ مطلعا ـ بمقدار كافٍ ـ على الكتب التي أشير إليها في أثناء الحديث

هـ) وافترضت أيضا أن القارئ يستطيع تمييز صواب الحديث عن خطئه، فلو لم يكن كذلك فمن الضروري أن يجتنب قراءة هذا الحديث، فإني أتوقع فيه أخطاءً قد وقعت فيها جهلا أو غفلة، وإن كنت أعتقد بعدم وجود أخطاء أساسية في شرائع الحديث ومحكماته وأصوله، بيد أن هذا في نفسه ليس إلا عقيدة لي لا يمكن لأحد غيري البناء عليها إلا إذا اعتقد بها مثلي، ولا يعتقدها كذلك إلا أن يبدأ من أصولها، فهنالك سيصل إليها بصورة طبيعية فيعتقدها حتما كما أعتقد

و) وأرى من الضروري أن ألفت نظر القارئ إلى أن مقصودي من تكرار كلمات من قبيل ـ (كما أرى) و(في نظري) و... ـ التي يجدها في هذا الحديث إنما هو تذكير القارئ بأن ما أذكره هنالك ليس إلا رأيي حتى وإن كنت جازما به، فعليه أن يتعاون معي بأن يتلقى الموضوع أمرا قابلا للبحث، ثم الرفض أو القبول، لا كما يفعله الكثيرون حيث يتعاملون مع المسائل الفكرية العقائدية كتعاملهم مع الفتاوى الفقهية العملية

هذا واني قد أخرج على هذه الطريقة فأذكر أمرا بقوّة وحماس كأني أريد إملاءه على القارئ إملاءً، وليس ذلك إلا لوضوح ذلك الأمر في نظري وضوحا صارخا من جهة، وأهميته العظمى وحساسيته الشديدة من جهة أخرى، وغفلة الناس عنه من جهة ثالثة، كما وأنّي قد أسهو وأغفل عن مذهبي في الحديث ... فاعتمادي على أن القارئ سيكون منتبها حذرا لا يقرأ هذا الحديث إلا (وهو شهيد)[٣]، ولا يقتنع بشيء منه إلا بتعقل وتفهم

استقراء الأذهان والقلوب ...

وفي آخر هذه المقدمة أبدي استعدادي ـ بل رغبتي ـ للاهتمام الجادّ بأي نقد يوجّه إلى أية فكرة مما طرحته أو أطرحه بشكل عام، وخصوصا في هذا الحديث الذي حاولت أن أنطلق فيه من طبيعة كل من (**ذهن الإنسان وقلبه**[٤]) في الجانب الذي يكونان تجريبيين استقرائيين أكثر من كونهما فيه عقليين تجريديين ...، وبما أني لم

---

[٣] كلمة «الشهيد» هنا مقتبسة من قول اللّه عزّ وجلّ في سورة ق / الآية٣٧: إِنَّ فِيْ ذَلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيْدٌ

[٤] أقصد بـ(**الذهن**) ما يفكر به الإنسان، وبـ(**القلب**) ما يحسّ به ويتفاعل ويحب ويبغض ... وما يتحوّل به نتاج الفكر إلى صبغة وإيمان ...، ولعلّ الكلمتين لا تستعملان في نفس المعنيين ...

هذا وأظنني لم أنجح تمامًا في هذا الكراس في التقيّد باستعمال كل من الكلمتين في معناها المحدد ...، فلينتبه لذلك

أجد[٥] بهذا الصدد استقراء علميا صالحا[٦]، فلم أجد أمامي إلا الانطلاق من تجاربي الشخصية المحدودة، فهي إذن قابلة للنقد، بل بحاجة ماسّة إليه لتصبح قاعدة وأساسا ومنطلقا ...، فإني أرغب في أن تساهم أحاديثي في بلورة منهج عام واضح للتفكير السليم وإن كان ذلك على حساب آرائي ... إنْ أُرِيدُ إلاّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إلاّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ

---

(٥) من الضروري أن ينتبه القارئ إلى أن قولي: «**لم أجد**» وما شاكلها من كلمات قد أكررها طيّ الحديث لا تعني أكثر من: «أني لم أعثر» وحسب، فمن المعروف أن **عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود**

(٦) من المعروف أن الكفار قد قاموا-ويقومون-بدراسات واسعة في هذا المجال، ويستغلونها استغلالا عظيما في اتباع الشهوات، ولكن بما أن تلك الدراسات كانت«**كافرةً**» في منطلقاتها وغاياتها فالاستفادة الصالحة منها تتوقف على كثير من العلم وعظيم من الدقة وشديدٍ من الحذر حتى فيما هو تجريبي بحت ...، وشرح هذا الأمر المرير يطول جدا لا أنا متهيء له، ولا هذا النوع من الحديث يسعه

التعاطف مع الحسين عليه السلام وما يؤثر عليه

١

أنا لا أذكر أن المسلمين تفاعلوا مع مقتل أحد كما تفاعلوا مع مقتل الحسين عليه السلام، فقد تفاعلت معه الغالبية الساحقة من الناس في حينه رغم أن أكثر هؤلاء لم يكونوا يعتقدون إمامته، بل وحتى فضله على الآخرين، بل يذكر أن بعض من كان يعادي الحسين عليه السلام في حياته تعاطف معه بعد شهادته، إما بصدق، أو تكلفا ومسايرةً للناس وابتغاء مصلحة[٧]

ولم يكن تفاعل الناس مع الحادث قد اقتصر على التحسر، بل كان بكاء شاملا، **فكأن جميع الكون بإنسه وجنه وأرضه وسمائه بكاه آنذاك، غير أهل الشام والبصرة وبني أمية**، كما في بعض الروايات[٨] إن فهِمَها المرء بشيء من التجوّز الشائع، وهو ما لابدّ منه كما أرى، وإلاّ لم أفهم المقصود منها وإن لم أرفضه ...

---

[٧] في الطبري ج٥ص٤٥٢ (ط دارالمعارف، مصر، ١٠ أجزاء): أن عمر بن سعد بكاه حين خاطبته زينب يوم عاشوراء، وفي ص٤٦٠ أن عين يزيد دمعت حين ذكر له زحر بن قيس كيفية قتلهم الحسين عليه السلام

وكما أيضا في الطبري (٥/٤٧٤ ـ ٤٧٥): أن ابن الزبير عظّم مقتل الحسين عليه السلام وقال ـ فيما قال ـ: «... أما واللّه لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه، كثيرا في النهار صيامه ..... أما واللّه ما كان يبدّل بالقرآن الغناء، ولا بالبكاء من خشية اللّه الحُداء، .....»

[٨] البحار ج٤٥ ص٢٠١-٢١٩ (ط المكتبة الإسلامية، طهران)

وعلى أي حال فإني أرى أن هذا مما يفترض أن يكون معروفا ـ إجمالا ـ لمن له إلمام بالتاريخ، فلا أراه بحاجة إلى توضيح وتأكيد

٢

أرى من الواضح كذلك أن تعاطف الناس مع الحسين عليه السلام قد أضرّ بالأمة التي قتلته، فمن الطبيعي أن أعتَقِدَ إذن أن لو استطاع هؤلاء أن يمنعوا ذلك التعاطف لفعلوه، ولا أراني ـ في هذا الاعتقاد ـ بحاجة إلى شواهد فعلية على ذلك من قبيل ما ينقل من تكلفهم أجواءً من السرور والفرح والتعاطف المضاد، وشدتهم مع من لم يسايرهم في الاستبشار، كما في قصة ابن زياد مع زيد بن أرقم المعروفة...[٩]

وبما أن التعاطف كان قد حصل، فذلك يعني أنهم لم ينجحوا في المنع، فهل ترى ذلك معجزا وأمرا خارقا لسنة اللّه الطبيعية في الخلق؟ إني لا أراه كذلك مادام من الممكن فهمه وفق النظام المعروف [١٠]، وهذا ما أحاول توضيحه فيما يلي:

---

(٩) الإرشاد تأليف محمد بن محمد بن نعمان المعروف بـ«المفيد» ت ٣١٤ هـ رضوان اللّه عليه، ص٢٤٣ ط مكتبة بصيرتي، والطبري ٥/٤٥٦

(١٠) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٢) في قسم التعليقات

٣

أرى أن تعاطف الناس مع الحسين عليه السلام كان نتاج عوامل مختلفة متداخلة، شأنه في ذلك شأن أي تفاعل عاطفي لهم تجاه أي أمر آخر، فهو مما لا يمكن منعه أو التحكم فيه مباشرة، وإنما بالتدخل في المقدمات القريبة والبعيدة التي ساهمت في ظهوره، ولم يكن يتوفر ذلك للأمة التي قتلت الحسين، بعد أن كانوا هم بأنفسهم قد أوجدوا كثيرا من تلك العوامل غفلة عن استدراج اللّه عزّ وجلّ وكيده المتين، وجهلا بأن اللّه لبالمرصاد، وَلاَ يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ، كما في القرآن الكريم

٤

إني لست الآن في صدد بيان جميع العوامل التي ساهمت في فتح النفوس على الحسين عليه السلام، لا لأني لا أجد لذلك الآن مجالا، بل مضافا إليه فإنه ليس متيسرا لي، وإنما أريد أن أذكر بعضا منها فأقول: إن الأحداث التي تكونت منها مأساة كربلاء بدءًا من رفض الحسين عليه السلام البيعة وخروجه من المدينة، إلى استشهاده في اليوم العاشر من المحرم، بل والذي حدث بعدئذ مع الأسرى في الكوفة والشام لو لاحظها المرء بدقة لوجد أنها قد حدثت بطريقة تتفاعل معها النفس الإنسانية بما لها من أساسيات فطرية ثابتة، ذلك بعد تمحيص تلك الأحداث وتطهيرها

مـن الشـوائب التـي تعلقـت بها في طـول التاريـخ بجهـل الجاهلين، وفيهـم أتقيـاء مخلصون ...

٥

لتوضيح الفقرة السابقة أقول: إن من ثوابت النفس الإنسانية ـ كما أرى ـ أنها تستقبح بعض الأمور التي نحن نسميها بالظلم، بغض النظر عن كون ذلك الاستقباح عقليا أم فطريا أم مكتسبا، فإنه موجود على أي حال، فمثلا إن تعذيب طفل صغير سيستفز نفس أي إنسان يراه أو يسمع به، ويخلق فيها غضبا تجاه من قام بالتعذيب، وتعاطفا تجاه الطفل المعذَّب، وذانك الغضب والتعاطف المتلازمان يتأثران ـ إيجابا وسلبا ـ بالعوامل المخففة والمشددة التي تكتنف العمل، فمثلا لو كان ذلك الطفل بلا قيِّم ومدافع، ولم يصدر منه أو ممن انتسب إليه أي تصرف ضد القائم بالتعذيب كان الغضب أشدّ، ولو فرضنا أن ذلك الطفل قد سبّب لذلك الشخص أذى ولو من دون قصد، أو أن أحدا من ذوي الطفل كان قد آذى ذلك الشخص لخفّ الغضب عليه وخف التعاطف مع الطفل، على الرغم من أن التعذيب في الفرضين هو نفس الظلم عقلا وشرعا من دون أي فرق ...

والسر في ذلك ـ كما أرى ـ أن النفس الإنسانية إنما تتعامل مع هذا النوع من المسائل مباشرة من دون أن تمر عبر الذهن، أو

تستفتي الشرع وإن كانت متشرعة، أللهم إلا قليلا من النفوس التي لا تشكل القاعدة العامة للسلوك الإنساني الفعلي، وإنما تمثل للناس هداية ودعوة وإمامة تُتبنّى وتُتولّى وتُتّبع كما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... **ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك** ...[١١]»، وإنما ذكرت النص للتوضيح، ولا يضرني عدم ثبوته مادمت أرى الأمر من ثوابت الدين ومحكماته[١٢]

٦

وللتوضيح الأكثر لهذه الفكرة أقول: أرى أن تعامل الناس مع المظلوم يختلف باختلاف وضعه، فبهذا اللحاظ أتصور ثلاثة أنماط من المظلومية:

ألف ـ المظلومية المتصنعة، وأقصد بها ما لو وجد الناس أحدا قد عرّض نفسه للظلم ـ بسبب أو آخر ـ، فماكر الظالم وخادعه وألجأه إلى أن يظلمه ...

إني أرى أن الناس لا يتعاطفون مع شخص كهذا وإن اعتبروه مظلوما بأذهانهم إلا إذا وجدوا في تعريضه نفسه للظلم سببا واضحا تجاوبت نفوسهم معه بشكل مباشر، وذلك أوّلا لأنه مما يبرئ الظالم في نفوسهم ـ بدرجة أو أخرى ـ إذ يرون أن المظلوم هو بعضُ

(١١) الكتاب ٤٥ ص٤١٧ من نهج البلاغة، ط بيروت صبحي صالح (الطبعة الأولى)

(١٢) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٣) في قسم التعليقات

سبب الظلم الواقع عليه، وأرى هذا أحد العوامل التي منعت أغلب المسلمين من التعاطف مع عثمان في مقتله، رغم ما بذلت من جهود جبارة لإقحامه في نفوس المسلمين مظلوما شهيدا ...

وثانيا: فإني أرى أن المكر مما يجعل نفوس الناس مستنفرة وحذرة تجاهه، حتى وإن أعجبوا ببعض المواقف الماكرة، وكبر الإنسان الماكر في نفوسهم، وانجذبوا إليه...، والحذر يمنع النفس من التعاطف معه (كمظلوم) إن أصابته مظلمة ـ كما أرى ـ ...

ب ـ **المظلومية الصادقة الخاوية**، وأقصد بها كون المظلوم بريئا تمامًا في نظر الناس من الظلم الواقع عليه، بمعنى أنهم لم يجدوه قد فعل أي شيء يثير الظالم ضده، و ـ من جانب آخر ـ لم يجدوا له موقفا خاصا يظلمه الظالم لأجله، وذلك ـ كمثال ـ لو أنهم رأوا ظالما يعذّب طفلا معوّقا لا يستطيع دفع الظلم عن نفسه، وليس له وليٌّ يدافع عنه، فأرى أنهم يتعاطفون مع الطفل إذًا ويغضبون على الظالم، غير أن تلك الرحمة والشدة ليستا مؤهلتين للاستمرار والتوسع كثيرا، شأنهما في ذلك شأن الأمور العاطفية الأخرى، إلا أن ينضم إلى العاطفة أمر آخر كما يلي:

ج ـ **المظلومية الصادقة الهادفة**، وأقصد بها كون المظلوم بريئا تماما في النفوس من الظلم الواقع عليه، كالحالة السابقة، ولكنه يرفض الاستسلام للظالم لا شهوة، بل انطلاقًا من مبادئ يعتقدها،

ولو قام إذًا بالدفاع عن نفسه اكتفى بما لا يستفزّ الظالم فيخفف وقع ظلمه على النفوس(١٣)

إني أرى أن التعاطف مع هذا النوع من المظلومية سوف لا يبقى في النفوس مجرد رحمة ليتحدد بحدود الأشخاص والزمان والمكان، بل يتجاوزها إلى إكبار الناس للمظلوم وإعظامهم له، بل واتخاذه إماما، والدعوة العفوية إلى مبادئه ... وإذا قُتل كذلك أصبح في نفوس الناس «شهيدا»، كل ذلك بشرط أن تكون مبادئ المظلوم التي ظُلم لأجلها واضحة للنفس مباشرة بلا توسط الذهن الذي يفترض أن يقوم بتحليل تلك المبادئ وتقييمها الأمر الذي لا يتوفر عادة إلا لقليلين من الناس وهم لا يشكلون ظاهرة اجتماعية على أي حال، وبشرط أن لا تكون تلك المبادئ مما يبرر ـ بصورة أو أخرى ـ مظلمة المظلوم في النفوس، وإلا فإن الناس ـ كما أرى ـ

---

(١٣) ضرب اللّه لهذا النمط من الظلم مثلا بقوله (المائدة/٢٧ـ ٣١): وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الأَخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ (إلى قوله:) فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ

هذا ومن أمثلة هذا النمط من المظلومية في العصر الحاضر ما حاول (غاندي) تجسيده في طريقته المعروفة التي سمّاها بـ(ساتياغ راها ***SATYAGRAHA***) أي الثبات للحق (أو رفض الظلم بطريقة معيّنة) حسبما ذكره في قصة حياته ... فكانت نتيجة ذلك أن تعاطفت معه نفوس كثيرة في شتى أنحاء العالم كما هو معروف ...

سوف لا يتعاطفون معه، بل قد تؤثر مظلمته أثرا عكسيا على مبادئه في نفوسهم، وكذلك بشرط أن لا تكون هناك حواجز طبيعية أو مصنعة في النفوس تجاه تلك المبادئ التي ظلم هو لأجلها ... وكل من هذه الشروط بحاجة إلى كثير من الشرح والتوضيح الأمر الذي لا أجد له الآن مجالا

أرى أن لهذا وذاك لم يتعاطف الناس مع المسلمين الأوائل الذين عُذِّبوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق .. ولم يتعاطفوا مع «حجر بن عدي» وأصحابه رغم عِظَم مبدئيته وشموخ موقفه. ولم يتعاطفوا مع أبناء الحسن الذين فعل بهم أبو جعفر الدوانيقي من الظلم ما يكاد المرء لا يصدقه[١٤]، ولم يتفاعلوا التفاعل المطلوب مع الشهيد زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام، والأمثلة على ذلك كثيرة من مظلومي أهل البيت وغيرهم، في طول الزمان وعرض العالم

---

(١٤) ذكرهم الطبري في أحداث السنة ١٤٤، وأبو الفرج في «مقاتل الطالبيين»، وذكرا أن جعفر بن محمد (ع) بكاهم، وفي الكافي ج١ ص٣٦١ ط دار صعب و... (الطبعة الثالثة): أنه حُمّ لأجلهم عشرين يوما

هذا وأما شهادة زيد بن علي فقد ذكرها الطبري في أحداث السنة الحادية والعشرين بعد المئة، كما ذكرها غيره . وفي مقاتل الطالبيين للاصفهاني نماذج كثيرة من المظالم التي تعرّض لها آل الرسول صلّى اللّه عليه وآله... وأما شهادة «حجر» وأصحابه فكذلك ذكرتْها كتب مختلفة منها الطبري الذي قد سجلها في أحداث السنة الحادية والخمسين

٧

لو كان ما ذكرته صحيحا فمن الطبيعي إذن أن أتوقع أن الناس آنذاك قد وجدوا في مقتل الحسين عليه السلام «المظلومية الصادقة الهادفة» فبذلك بكوه وانجذبوا إليه كإمام ومنهاج وسبيل...

إنني لا أرى هذا مجرد توقع منطقي فحسب، بل أجد أن الواقع الخارجي قد سار وفقه، فكأنّ الحسين عليه السلام كان ناظرا إلى هذه الحقيقة ومركزا عليها في أقواله وأعماله، حيث لم يفعل ما يستفز نفوس الناس ويخفف من وقع مظلمته[١٥]

وأرى أن المرء يستطيع أن يلمس في مسيرته عليه السلام كثيرا من النصوص تدله دلالة محكمة على ما قلت، ولو وجد بعد ذلك من النصوص ما قد تتنافى مع تلك الصورة المحكمة فأرى أن ذهنه سوف يبحث لها عن معنى مساير للصورة المحكمة، ولو لم يستطع ذلك أهملها شأنه في ذلك شأن عمل الذهن عامة مع «**المتشابهات**»[١٦] لاسيما وأن النصوص التي تبدو مضادة

---

(١٥) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٤) في قسم التعليقات

(١٦) أقصد بـ«**المتشابهات**» الأشياء التي يتلقى منها الذهن أكثر من معنى متماثل أو صورة متشابهة، فالذهن في عمله التجهيزي (لا التخزيني) يحاول أن يربط تلك الصور ببعضها ليجعل منها صورة واحدة متجانسة قابلة للعرض على النفس التي من طبعها أنها لا تقبل إلا صورة موحدة، إذ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ، فينطلق الذهن لذلك من الصور المحكمة القاطعة القائمة في النفس كأصل وأساس في التعامل مع تلك الصور المتشابهة،

لا توجد على الأكثر ـ حسب اطلاعي ـ إلا في «مقاتل» كتبت في عصور متأخرة ككتاب «**اللّهوف في قتلى الطفوف**» للسيد ابن طاوس ـ المتوفى سنة ٦٦٤ ـ مثلا، فإن حمْلَ فِعْل السيد رحمه اللّه على الصحة يفرض على المرء أن يتصور أنه وَجَد نصوصا كان قد اختلقها أعداء ماكرون أو أحبّة جهلة، فغفل عن الأمر وأودعها الكتاب، فتبعه على ذلك كثيرون ثقة به وغفلة عن أن كثرة شغله وانشغاله وتنوع اهتماماته وأعماله كانا كافيين لجعله عرضة لكثير من الغفلة والخطأ، فلم يكن غريبا أن يجد الباحثون في أقواله وكتاباته ما يجعلهم يتعجبون ويحتارون في فهمه وتفسيره[١٧] ...

وعلى أي حال فإني أرى أن الناس رأوا في مقتل الحسين عليه السلام ظلما من النوع الأخير، فبما أن مظلوميته كانت مما تتفاعل معها النفوس بطبعها، وبما أنها لم تكن متكَلَّفة ماكرة، وبما أن الحسين عليه السلام لم يفعل ما يبرر في نظر الناس مقتله إلا ما رأوه محض دفاع عن نفسه، وبما أن الظلم كان من النوع الذي يهز النفس الإنسانية من الأعماق، فكان من الطبيعي أن يبكيه كل الناس إلا من لم يكن يريد أن يبكيه بسبب أو بآخر[١٨] ...

فما انسجم منها مع تلك المحكمات تقبله الذهن وما لم يتلاءم معها، ولم تنفع محاولته الربط، أهمله ... (وهذا حديث طويل)

[١٧] لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٥) في قسم التعليقات

[١٨] أرى من الضروري الانتباه إلى أن لشخص الحسين عليه السلام بما له من انتساب

هـذا وبـما أن امتناعه عن البيعة لم يكن شهوة ولمصلحة خاصة، بل كان دينا خالصا لله عرفته نفوس النـاس بمشاهـدتهم لأعماله ومواقفه الواضحة الترابط، والمتأيدة بأقواله، أو بسماعهم لها من أناس نقلوها بصورة عفوية ومن دون تكلف يؤثر على سلاستهـا، لا كما هو الآن ...

ومن زاوية أخرى فقد لاحظ الناس صموده وثباته شامخا قويا لا يثنيه شيء مما يُضعف قليل منه كثيرا من الناس ...

فكان من الطبيعي أن ينساب الحسين عليه السلام ـ بهذا وذاك ـ إلى نفوس هؤلاء الناس شهيدا وإماما ووليا، قبل أن يستفتوا في ذلك شرعا أو يمليه عليهم أحد، بل وأن يجدوا رغبة عفوية في نفوسهم للكون معه والسير على دربه، وإن كان أكثرهم لم يعرفوه ضمن جذوره وأبعاده الصحيحة، فكانت حركتهم إليه ضمن حدود معرفتهم الضيقة، بل المشوّهة ـ لو صحّ التعبير ـ ...

معروف إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله كان تأثير في التفاعل العام الذي حدث تجاه مقتله، فإنه لو لم يكن كذلك لم يعرفه الناس ولم يتناقلوا نبأ مقتله فلم يتوسع تعاطفهم ولم ينتشر، كما أنه لو لم يكن ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله لما كان تعاطف الناس معه بالمستوى الذي قد حصل فعلا، غير أن هذا وأمثاله لم يكن العامل الرئيس في التعاطف الذي حصل...، كل هذا كما أرى

٨

وأرى من المفيد أن أوضح هنا نقطة من النقاط التي ذكرتها آنفا فأقول:

انطلاقا من ملاحظاتي لنفسي ولنفوس أخرى هنا وهناك أرى أن الحسين عليه السلام لم يتسرب إلى نفوس الناس شهيدا وإماما باحتجاجاته وخطبه، بل بمواقفه وأعماله التي لم يعدُ كلامه إلا بيانا لها، وذلك لأني أرى أن أكثر هؤلاء لم يكونوا يفهمون الاستدلالات الكلامية، شأنهم في هذا شأن أغلب الناس حيث لا يعقلون[١٩]، بالإضافة إلى أن الحق المُقال بحاجة إلى وقت طويل ليصبح معرفة ودينا، ولم تكن تكفيه تلك الفترة القصيرة

وأظن أن هذا من الأسباب التي جعلت مقال الحسين عليه السلام في مسيرته الاستشهادية قليلا من جهة، وفي أمور معينة خاصة من قبيل: بيانٍ مختصرٍ لموقفٍ، أو إجابةٍ مقتضبةٍ لسؤالٍ وما شابه ذلك من جهة أخرى ...، فكأنه ـ بأبي وأمي ونفسي ـ كان يحذر فيما يتكلم أن تتحول الأنظار إلى ما يقوله فقط بدل أن تتركز على مواقفه وأعماله، ومن ثمّ إلى أقواله، فلو كان قد حصل ذلك

---

(١٩) هذا على فرض أن يكون الاحتجاج الكلامي في الأساس وسيلة صالحة لتجهيز الحقيقة وِفق متطلبات النفس الفطرية وإمرارها إليها بسلام ...، وليس هذا الفرض صحيحا رغم كونه أصلاً مُعتَمدًا مفروغا من سلامته في «المعرفة» عامة، وخاصة الدينية السائدة منها، بتفصيل لا يسعه المجال ...

المحـذور فإنـي أرى أن أعـداءه كانـوا يستغلونه منفـذا «**للجدل**»[٢٠]، وحتـى لـو لـم يكونـوا يفعلونـه، فـإن مقاله لم يكن يؤثـر ذلك الأثر العام الـذي قـد حصـل بفعالـه، وأرى هـذا واضحـا للعـارف بالنفوس البشـرية

٩

أرى أن «**النفـوس**» الآن ـ بشـكل عـام ـ لـم تختلـف فـي ثوابتهـا التي ذكرت عن النفوس في عهد الحسين عليه السـلام، وإن اختلفت عنهـا فـي نوعيـة ومقـدار الزيـغ الـذي قـد أصابها، فأرى أن سـلوك نفس الطريقة في التعامل مع ذكرى استشهاده سوف يهيىء كثيرا من القلوب للانفتـاح عليه ومن ثَمّ الحركة إلى مبادئه التي استشـهد لأجلها، والتي هي الدين الذي بعث به النبي صلى اللّه عليه وآله وجميع الأنبياء ... لكـن حرّفته أهـواء الضالـين وجهل الجاهلـين وغفلة الغافلين، فـ «*لم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعي الوبيل*» كمـا كـان في عهد الحسين عليه السـلام، سواء أثبَتَ أنـه صرّح بذلك في طريقـه إلى كربـلاء كمـا في الطبري (٥/٤٠٣) ـ مثلا ـ، أم لم يثبت

---

(٢٠) كمثال للجدل بالباطل إليك ما في الطبري ج٥ ص٤٥٨:

حين عُرض علَى ابن زيـاد عليّ بن الحسين فقـال لـه: مـا اسمك؟ فقـال: أنا علي بن الحسين، قـال: أو لـم يقتل اللّه علي بن الحسين؟! فسكت . فقـال له ابن زيـاد: مـا لـك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ يقال له أيضا علي فقتله الناس. قال: إن اللّه قتله!، قـال: فسكت علي، فقـال لـه: مـا لـك لا تتكلم؟ قـال: اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّه . قـال: أنت واللّه منهم ويحك ...

١٠

إني أرى الناس الآن ثلاثة أنواع: نوع يعرف الحسين عليه السلام ضمن شجرته وعلى أساس من أصوله ويؤمن به إماما ومنهاجا ودينا، وإني أراهم قليلين جدا

وعلى أي حال فإن هؤلاء ليسوا بحاجة إلى أن يجدوا في الحسين مظلومية صارخة ليتفاعلوا معه ...

والنوع الثاني: هم الذين لا يعرفونه ولا يريدون معرفته، وأرى أن كثيرا من الذين تعودوا الارتباط به هم من هذا النوع وكذلك الذين يتعاملون معه كهوى ومصلحة، فمن الطبيعي إذن أن لا يحاولوا معرفته، بل أن يحاولوا بشتى الطرق ليصنعوا منه موجودا لا يجرؤ أحد أن يبحث عنه ليعرفه، وإنما يقدسه كشيء ثابت ينتهي إليه ويقف عنده كل شيء فحسب، وذلك لأن أي بحث صحيح قد يستتبع تغيرا في الوضع القائم الأمر الذي لا يمكن لصاحب الهوى والمصلحة أن يتقبله، إلا أن يضمن أن ذلك التغير سيكون في المسار الذي يحقق مصلحته ويتبع هواه، وإلا فسيتصدى له ليمنعه أو ليسيطر عليه فيوجهه ويقوده إلى حيث يشاء ...، فهذا النمط من الناس لا يتعاطفون مع الحسين عليه السلام إلا بشروط مركوزة في نفوسهم، و«**التعاطف المشروط**» ليس مما يهيء الذهن للبحث عن الحق ومعرفته، بل لمزيد من رسوخ الشرط وتجذره ...

والنوع الأخير: هم الذين استُضعفوا، بيد أنهم لم يستسلموا فلم يتسرب الضعف إلى قلوبهم، فإذا وجدوا الحق عرفوه وآمنوا به، وإذا أعينوا عليه عملوا به، وهذا النمط من الناس هم الذين هزتهم شهادة الحسين عليه السلام في حينها وغيرت نفوسهم وفتحت لأذهانهم بابا إلى الحق ...، والمنتظر الآن كذلك أن تؤتي مظلومية الحسين عليه السلام لهذا النمط من الناس ثمارها فتثير فيهم عواطفهم فتهيء أذهانهم لتفهم الحق الذي جسّده، ونفوسهم لتقبله ... كل ذلك لو وجدوا فيه الحق كما كان آنذاك، وأنّى ذلك مع هذا التشويه الهائل الذي قد أصاب مسيرة الشهادة إلا بجهد جهيد وإخلاص عميق؟ ولا حول ولا قوة إلا باللّه

أمثلة وتطبيقات

١ـ في البحار ج٤٥ ص٥٠ نقلا عن المناقب وابن أبي طالب[٢١]: أن الحسين عليه السلام «لم يزل يقاتل حتى قتل ألف رجل وتسعمئة رجل وخمسين رجلا سوى المجروحين»

وأظن أن السيد بحر العلوم قد استند إلى هذا النص في قوله: «**قتل منهم مقتلة عظيمة**[٢٢]» حسبما أشار إليه ابنه في هامش الكتاب، ولعلّه ـ كغيره من أصحاب المقاتل المتأخرة ـ استكثر العدد فأجمله

إني أرى أنه لو كان هذا قد حدث فعلا فإن الناس لم يكونوا يتعاطفون مع الحسين عليه السلام كما فعلوا، والسبب ـ في نظري ـ أمران: الأول: أن ذلك كان يحوّله من مظلوم إلى شجاع جبار،

---

(٢١) كتاب «مناقب آل أبي طالب» ينسب إلى محمد بن علي المعروف بـ«**ابن شهرآشوب**» المتوفى سنة ٥٨٨، وعلى فرض صحة انتساب الكتاب إليه بحذافيره، لم يصح قبول كل ما جاء فيه، ويكفينا الآن في هذا الصدد أنه يعتمد المراسيل، وينقل عن مجاهيل ... وهذا لا ينافي كون المؤلف ثقة في نفسه وعظيما ما لم يكن معصوما ...

هذا وأما محمد بن أبي طالب فهو رجل مجهول غير أنه كان قد ألف مقتلا كبيرا سماه «تسلية المجالس» حسب قول البحار الذي ينقل عنه كثيرا، وفيه كثير من الأخبار الشاذة الغريبة ...

(٢٢) مقتل الحسين عليه السلام ص ٤٣٩ النجف (الطبعة الثالثة)، ولاحظ كذلك مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرم ص ٢٧٤ بيروت (الطبعة الخامسة)

والشجاع قد يسمو في نفوس الناس ـ خصوصا المرتبطين به ـ كبطل صنديد، وأما لو قُتل ـ مثلا ـ، فلا يبكونه ـ عادةً ـ كمظلوم، بل إنما قد تبكيه الفئة التي ينتمي هو إليها بدوافع أخرى[٢٣] ...

والثاني: أن هذا مما يثير بعض التساؤل في الذهن، والتساؤل ما يعمل به «الفكر» فيما يقوم به من التحليل والاستنباط ...، وأجد أن تفاعلات نفسي العاطفية تتجمد حينما يعمل فكري، ألا تجده أنت من نفسك؟ فإني أرى أن ذلك ليس مما يختص بي بل يعم الناس كلهم

إني أظن أن هذا النوع من البطولات سواء من الحسين عليه السلام أو العباس أو علي الأكبر أو القاسم مثلا قد اختلقها أعداء الحسين الماكرون دفاعا عن أنفسهم تجاه الناس ومنعا لتعاطفهم معه، وتلقفها أحباؤه الغافلون فأودعوها كتبهم تصورا منهم أن ذلك فضيلة للحسين عليه السلام «اعترف» بها عدوّه! كما يقول المَثَل: «**الفضل ما شهدت به الأعداء**»[٢٤]، وليس ذلك صحيحا في

---

(٢٣) تأييدا لهذا الذي ذكرتُ إليك القصة التالية:

في مساء الجمعة: ٣ محرم ١٤١٦ حدّثني ثقة أنه سمع قبله بليلة خطيبا يذكر على منبر أنه قرأ مصيبة العباس بن علي عليه السلام في مجلس عزاء في لبنان واجتهد أن يُبكي الحضور ولكنهم لم يبكوا!، فسأل بعضَهم متعجبا عن سرّ عدم بكائهم فتبين أن الناس هنالك لا يبكون على العباس الذي يرونه رمز البطولة...

(٢٤) يذكر الشيخ القمي (ره) في كتابه: وقايع الأيام ص٦٣ أن أوّله: «ومناقب شهد العدوّ

القضايا الدينية التي لا يمكن أن يعرف فضلها إلا المخلصون من المؤمنين بالدين، والعالمون بمواضع الكلم فيه ...

ومن هذا الباب أيضا ما في مقتل الحسين عليه السلام للسيد بحر العلوم[٢٥]: قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: قيل لرجل شهد يوم الطف مع ابن سعد: ويحك أقتلتم ذرية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله؟! فقال: «لو شهدتَ ما شهدنا لفعلتَ ما فعلنا، لقد ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسُود الضارية تحطّم الفرسان يمينا وشمالا، وتلقي بأنفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيَّة، فلو كففنا عنها رُوَيدًا لأتَتْ على نفوس العسكر بحذافيره، فما كنّا فاعلين لا أمَّ لك؟!»

ثم ذكر المؤلف الأبيات الثلاثة التالية:

بنفسي رؤوسا من لوي بن غالب من الضيم مذ كان الزمان لتأنف
أبت أن تشم الضيم حتى تقطعت بيوم به سمر القنا تتقصف
كرام قضوا بين الأسنة والظبى كراما ويوم الحرب بالنقع مسدف[٢٦]

بفضلها»، وأن ابن العاص قاله حين إشادة معاوية بشجاعة علي عليه السلام في (صفِّين)

(٢٥) المقتل ط النجف ص ٣٥٢، وشرح النهج:ج ٣ ص ٢٦٣، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، مصر (٢٠ جزءا)

(٢٦) **لُؤَي بن غالب**: جدٌّ لقريش الذين منهم النبي (ص) . **الضيم**: الظلم . **تشم**: من

هذا، وبالإضافة إلى ما أجده من أن هذه الصورة المذكورة هنا تنافي ما كان قد حصل من التعاطف مع المظلمة، أرى أن الدقة في النص المذكور وحده تكفي لجعل المرء حذرا في التعامل معه، فكيف وهو يجد من النصوص ما يدل على أن هذا كان مما ركز عليه أعداء الحسين عليه السلام في التبرؤ من الظلم وإزالة أثر المظلمة في النفوس أو تخفيفه، منها ما نقله الطبري (٥/٤٦٣) عن يزيد أنه قال: «.. ولكنّه ـ يعني الحسين(ع) ـ قاطع ظالم، فلما نظر إلى رأسه قال:

يُفلّقن هاما من رجال أعزّة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما[٢٧]»

ومنها ما في الطبري (٥/٤٦٢): إن يزيد دعا عمرو بن الحسن بن علي، وهو غلام صغير، فقال له: أتقاتل هذا الفتى؟ ـ يعني خالدا

الشم، أو من الشمم بمعنى الدنوّ . **القَنا**، جمع القَناة: الرمح . **تتقصف**: تتكسر . **الأسنة**، جمع السِّنان: حديد الرمح المسنَّن . **الظُّبَى**، جمع الظُّبة: طرف السيف وحدُّه . **النقع**: الغبار . **مسدف**: مظلم

(٢٧) البيت كما ذكر أبو الفرج في أغانيه (١٢/١٢٧، ط دار صعب، بيروت) للشاعر المخضرم: الحُصين بن الحمام المري، قاله في معركة انتصر فيها ...، ضمن أبيات منها:

جزى اللّه أبناء العشيرة كلها بدارة موضوع (اسم مكان) عقوقا ومأثما
بني عمنا الأدنين منهم ورهطنا فزارة إن دارت بنا الحرب معظما
ولما رأيت الودَّ ليس بنافعي وان كان يوما ذا كواكب مظلما
صبرنا وكان الصبر منا سجيّة بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ابنه ـ قال: لا، ولكن أعطني سكينا وأعطه سكينا ثم أقاتله. فقال له يزيد: «شنشنة أعرفها من أخزم[٢٨]» ، هل تلد الحية إلا الحية؟!

ومنها ما نقله البحار (١٢٢/٤٥) عن عمرو بن سعيد بن العاص[٢٩] أنه حين سمع نبأ مقتل الحسين عليه السلام قال في خطبته:

«... واللّه لوددت أن رأسه في بدنه وروحه في جسده، أحيانا كان يسبّنا ونمدحه ويقطعنا ونصله كعادتنا وعادته ولم يكن من أمره ما كان، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه يريد قتلنا إلا أن ندفعه عن أنفسنا»

وأذكر هنا أيضا أمرا آخر مرتبطا بهذا الموضوع، وهو ـ كما أرى ـ أن أعداء الحسين عليه السلام قد يكونوا استهدفوا من اختلاق بعض المبالغات ـ بالإضافة إلى ما ذكرت ـ هدفين آخرين:

الهدف الأول: تحريف مسيرة الحسين عليه السلام عن طريق تضخيم حادث من أحداثها ـ مثلا ـ ليصبح هو المحور الرئيس

---

(٢٨) مثل يضرب لكل من يشبه أباه، أظن استعماله في الذم أكثر . **الشنشنة:** الطبيعة، **أخزم:** يُقال أنه كان رجلا عاقّا لأبيه فعقّه أولاده ...، يقال أن مصرعه الأول: «**إن بَنِيّ رمّلوني بالدم**» .. لاحظ لسان العرب مادة «**خزم**»

(٢٩) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد أبي أحيحة بن أمية بن عبد شمس، جبار من جبابرة بني أمية...، كان واليا على المدينة وقت مقتل الحسين عليه السلام..... قتله عبد الملك في قصة طويلة ينقلها الطبري في حوادث سنة ٦٩

والمعلم البارز و«إمام» المسيرة فيقودها في الأذهان إلى حيث الخواء واللّهو والضلال المستهدف، وهذا أسلوب سهل وناجح جدا ومعروف في تحريف الأديان عامة، والإسلام ـ بقرآنه وعترته ـ خاصة

بل أرى أن «**الصادّ عن سبيل اللّه**» لا يحتاج إلى أن يختلق كذبا، إذ يكفيه أن يجزّئ مسائل الدين الموجودة فيختار بعضا منها فيركز عليه ويزينه ليبرز بذلك في الأذهان إلى الواجهة فتختفي إذن معالم الدين الحقيقية أو تتحول إلى قضايا هامشية لا تدل المرء على الطريق، فسيجد إذن من جهَلة المؤمنين وغَفَلَتهم جنودا يتطوعون لنشر ما فعل وترويجه والدفاع عنه ... بل سينهضون بخدمته والتمحور حوله إن استطاع إخفاء أمره، وما أسهله!، فبذلك يتحقق له أمران: الصد عن سبيل اللّه، ودنيا عريضة مطمئنة يخلص أناس بتقديمها له، قربة إلى اللّه تعالى! ... ولا حول ولا قوة إلا باللّه

والهدف الثاني: إخراج المسيرة عن عفويتها التي بها تدخل النفس من دون عائق وتتسرب عن طريقها إلى الذهن فتكسر أغلاله ليتحرر فيبدأ بالتفكير وفق الموازنات الجديدة التي يكون بها الحسين عليه السلام إمام هدى ضمن سلسلة الهداة، ومن المفروض أن يتفهم الذهن هذه الموازنة المنسجمة مع فطرته ... فيرجع الحسين مرة أخرى إلى النفس المتهيئة المنتظرة، لا كقضية عاطفية بسيطة كما كانت في البدء، بل ضمن شجرتها، وكدين،

فيكون بذلك «إيمانا» وإماما ونورا وبصيرة ...[٣٠].

أقول: إن عدوّ الحسين يقوم إذن باختلاق عناصر في المسيرة لا تستطيع النفس أن تستقبلها بسلاسة وعفوية، فتنقل ربكتها تلقائيا إلى الذهن فيقوم بتحليل المسيرة والبحث عن حيثياتها والتأكد من سلامتها، وبذلك يفتقد حالته الفطرية الانسيابية في تلقي أحداث المسيرة ونقلها إلى النفس، فتصبح المسيرة إذًا أمرا ذهنيا بحتا ...

ثم إن الذهن لا يستطيع أن يتفهمها إلا أن يجد لها موضعا ضمن «شجرة المسيرة»[٣١] المترابطة بما لها من معادلات، أو القيام بتغييرات أساسية في تركيبة الشجرة لتتلاءم مع العناصر الدخيلة ...

٢ـ في مقابل النص السابق هنالك رواية في الطبري[٣٢] عن الغاز بن ربيعة الجرشي أنه قال: «واللّه إنا لعند يزيد بن معاوية إذ أقبل زحر بن قيس[٣٣]... فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح اللّه ونصره:

---

(٣٠) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٦) في قسم التعليقات

(٣١) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٧) في قسم التعليقات

(٣٢) ج٥ ص ٤٥٩ـ٤٦٠

(٣٣) في ص ٢٦٠ من الأخبار الطوال (الطبعة الأولى ١٩٦٠، القاهرة) للدينوري: أن شمرا هو الذي قال: يا أمير المؤمنين: ورد علينا هذا في ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستين رجلا من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم أميرنا عبيد اللّه بن زياد أو القتال، فعدونا عليهم عند شروق الشمس فأحطنا بهم من كل جانب، فلما أخذت السيوف مأخذها جعلوا يلوذون إلى غير وزر لوذان الحمام من الصقور، فما كان إلا مقدار جزر جزور

ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته، فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد اللّه بن زياد أو القتال، فاختاروا القتال على الاستسلام

فعدونا عليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم يهربون إلى غير وزر ويلوذون منا بالآكام والحفر، لواذا كما لاذ الحمائم من صقر، فواللّه يا أمير المؤمنين ما كان إلا جزر جزور أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسادهم مجردة... وخدودهم معفرة تصهرهم الشمس وتسفى عليهم الريح[٣٤]... قال: فدمعت عين يزيد ...»

إني لا أرى هذا الكلام المنمق المؤثر إلا مسرحية قد تكلفها زحر (أو أحد الرواة) وِفق معايير جاهلية كانت سائدة آنذاك بشكل عام، من الشماتة بالعدوّ والازدراء به ...، هذا على الرغم من احتواء الكلام على كلمات صادقة هنا وهناك، ولست أرى هذا للمنافاة

أو نوم قائل حتى أتينا على آخرهم

فهاتيك أجسادهم مجردة. وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة، تسفى عليهم الرياح، زوّارهم العقبان ووفودهم الرخم

وإني أرى هذا القول أقرب إلى القبول مما ذكره الطبري، رغم عدم اعتمادي على الدينوري في رواياته بشكل عام

(٣٤) **الهام** (جمع الهامة): الرأس، **الوَزَر**: الملجأ، **الآكام**: التلال، **الجَزْر**: النحر، **سفت الريح**: هبّت

بين هذا الكلام وبين نصوص كثيرة دالة ـ بطريق أو آخر ـ على أن الشهداء قد قاتلوا ببسالة ملفتة للأنظار كما كان متوقعا منهم لكونهم مؤمنين، ولكونهم مع الحسين عليه السلام الذي كان يزيد القوي صلابة، ويعوّض الضعيف من عوامل الضعف الوراثية والتربوية قوة وثباتا...، فبهذا وذاك كانوا ـ بحق ـ أوفى أصحاب وخيرهم...[٣٥]

أجل إني في اعتباري هذا الكلام مسرحية متصنعة لا أستند إلى الدليل الذي أشرت إليه ـ وإن كان كافيا سندا ـ، بل أستند إلى الأصل الذي حاولت أن أنطلق منه في هذا الحديث وهو(***واقع النفس الإنسانية بما لها من خصائص ثابتة يشترك فيها الناس عامة..***)، فبناء عليه أقول: لو كان الحسين عليه السلام وأصحابه كما صوَّرتْهم القصة لَما دخلوا النفوس «**شهداء**»[٣٦]، وإن بكتهم العيون **كمظلومين**، ألا تجد هذا في نفسك بوضوح؟

---

(٣٥) في الإرشاد ص٢٣١ والطبري ج٥ ص ٤١٨ أن الحسين عليه السلام عبّر عن أصحابه ليلة عاشوراء بقوله: «**فإني لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابي ...**»

هذا ومن أروع ما قرأته وصفا لبسالة أصحاب الحسين عليه السلام ما نقله الطبري (٤٣٣/٥) من قصيدة للشقي كعب بن جابر قاتل «بُرير» رضوان اللّه عليه، وفيما يلي بعضها:

فجَرّدْتُه (يعني سيفه) في عصبة ليس دينُهم ... بديني وإني بابن حرب لقانع
ولم ترَ عيني مثلَهم ـ في زمانهم ... ولا قبلَهم في الناس إذ أنا يافع ـ
أشدَّ قراعا بالسيوف لدى الوغى ... ألا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للطعن والضرب حُسَّرا ... وقد نازلوا لو أن ذلك نافع

(٣٦) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٨) في قسم التعليقات

٣ـ في ص٢٢٥ من كتاب الإرشاد للشيخ المفيد (ره) أن الحسين عليه السلام خاطب أصحاب الحر بن زياد فقال: «أما بعد فإنكم إن تتقوا اللّه وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله عنكم، ونحن أهل بيت محمّد وأولي بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ...»، وفي ص٢٢٣ أنه قال لعمرو بن لوذان: «واللّه لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي...» كما وأني لم أجد في الكتاب كلاما للحسين عليه السلام كان قد شخص فيه أحدا من أعدائه باسمه

إني أرى أن ذلك لم يكن صدفة، بل حكمة يفهمها أيّ عاقل، فإنه لو كان قد شخّص أحدا فانتقده أو نسب مظلمته إليه لانحرف بذلك أمره في نفوس الناس من كونه دينا، إلى قضية شخصية بينه وبين أناس معينين، وهذا ما تجنبه الإمام وأراده أعداؤه

وأظن أن ذلك بعض السبب لعدم ذكر القرآن المبين أسماء الذين كفروا باستثناء «أبي لهب» حيث كان عم النبي صلى اللّه عليه وآله فاختلف بذلك عن الكافرين الآخرين، فلم تشوه تسميته دعوة القرآن، بل أفادتها بإيحائها أنها ليست دعوة هاشمية ـ مثلا ـ كما كانت الذهنية الجاهلية تتعامل معها، بل ومازال الناس كهؤلاء، فكم من دعوة صالحة قد خُنقت من قِبَل مناهضيها بالتركيز على «عصبية من العصبيات»، ومن المضحك المبكي أن كثيرا من

مخلصي المؤمنين يغفلون عن هذه الحقيقة الواضحة فيتعاونون مع أعداء دينهم في صبغه بالعصبيات ولا حول ولا قوة إلا باللّه

ومن زاوية أخرى فإني أرى أن لو ذكر اللّه عزّ وجلّ أسماء أئمة الكفر ومن نزل فيه قرآنٌ كوليد بن المغيرة مثلا لكان ذلك مما يجعل الكفر خاصا بهم وبسلوكهم في أذهان المسلمين لاسيما المتأخرين منهم، فلم يكونوا يتعاملون مع تلك الأسماء كمجرد أمثلة من الذين كفروا في وقتهم فقط من دون أن يكون لهم أي خصوصية كأشخاص، ولعل من أوضح الشواهد على هذا الذي قلت هو كيفية تعامل المسلمين مع المنافقين الذين ذكرهم القرآن حيث أن على الرغم من عدم التصريح بأسماء هؤلاء، فإن المسلمين الذين أتوا بعد النبي صلى اللّه عليه وآله ـ استنادا إلى بعض ما نقله المؤرخون ـ جعلوا المنافقين أناسا معينين ماتوا فمات بهم النفاق، أو استمر إلى الآن ولكن لا كدين وطريقة عامة بل كانتماءات شخصية محددة إلى أناس معينين بأشخاصهم ....

وكذلك في مورد الحسين عليه السلام فلو كان قد ذكر أناسا لكان قد حدثت نفس المشكلة، بل إن المشكلة قائمة فعلا، حيث أن أناسا من المؤمنين يتصورون الأمر خاصا **بيزيد وابن مرجانة وعمر بن سعد وشمر، أو بآل أبي سفيان وآل زياد، أو مضافا إليهم آل مروان.** وبما أنهم هلكوا فليس على من يحب الحسين عليه

السلام إلا أن يلعنهم ويعلن براءته منهم ويتمنى بصدق أن يحيي اللّه له «شمرا» أو «ابن زياد» أو «عمر بن سعد»...مثلا، بل جميعهم ليقطّعهم إربا إربا ويثأر بذلك للحسين وينصره، فيتشفى ويشفي قلوب المؤمنين، بالإضافة إلى الأجر الذي سيحصل عليه في الآخرة .... فما دام قد تأخر زمانه فليس عليه إلا أن يبكيه ويسلم عليه ويلعن قاتليه وظالميه، ويكرر هذا وذاك ...

كل ذلك رغم وجود مجموعة كبيرة من الروايات التي تذكر ـ بشكل أو آخر ـ أن الذين قتلوا الحسين عليه السلام «أمّة»[٣٧] فلا يُهتم بها، ويركز على رواية تسمي أشخاصا وتدعو إلى لعنهم، ولا يهم أن يكون في سندها من يقال فيه أنه «وضّاع» مادامت الرواية تجاري تلك النزعة، بل لو لم تكن هناك رواية لاشتهوها لتكون فكانت!، أو اختلقها لهم أناس لمصلحة شخصية أو محاربةً للدين وتحريفا لمواضع الكلم فيه ...

إني لا أرى هذه المشكلة خاصة بالتعامل مع الحسين عليه السلام، بل أجدها ظاهرة بشرية عامة أن لا يفصل الناس ـ إلا قليلا منهم ـ بين الشخص والدين المتجسد فيه، فلو أنه دعا الناس إلى دينه فإنهم سوف يربطون الدين به، بل يركزون على شخصه أكثر مما يركزون على دينه، حيث يشاهدونه قبل كل شيء، سواء أكانوا

---

(٣٧) يلاحظ باب زيارات الحسين عليه السلام المطلقة في الجزء ١٠١ من البحار

من الذين آمنوا بدينه أم من الذين كفروا به ...[٣٨]

وأرى أنّ بهذا يُفَسَّر توقع المشركين أن يموت الإسلام بموت الرسول صلّى اللّه عليه وآله، خصوصا وأنّه كان بلا ولد فكان بزعمهم «أبتر»، كما يفَسَّر فرار المسلمين في «أحُد» حين سمعوا أن النبي قد قتل ...

وأرى أن من النتائج الطبيعية للتركيز على الأشخاص ما يجده المرء من اهتمام كثير من المؤمنين ببعض الصفات الشخصية للنبي أو الإمام أو عمل من أعماله، من دون أن يكون لتلك الصفات أو ذلك العمل أي ارتباط بالنبوّة أو الإمامة، بل قد تكبر في نظرهم خصوصية جسدية كالتي تنقل من مواصفات النبيّ البدنية مثلا ... ذلك إذا كانت تلك الصفة أو العمل أو الخصوصية مما يُهتمّ به بسبب أو آخر، ومن المعروف أن عوامل اجتماعية ونفسية مختلفة تتداخل في اهتمام الناس بأمر وعدم اهتمامهم به

فلو صح ما ذكرت فأرى من اللازم على المرء أن يتعامل بحذر شديد مع أي نص يركز على أشخاص معينين كقتلة الحسين عليه السلام، فعليه أن يدرسه دراسة ممعنة قبل أن يتقبله، وذلك كما في روايتي الإرشاد[٣٩] التاليتين:

---

(٣٨) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (٩) في قسم التعليقات

(٣٩) ص ٢٥١

الأولى: ما أرسله عن عبد اللّه بن شريك العامري أنه كان يسمع أصحاب علي عليه السلام ـ إذا دخل عمر بن سعد من باب المسجد ـ يقولون: **هذا قاتل الحسين بن علي عليهما السلام**، وذلك قبل أن يقتل بزمان

والثانية: ما أرسله كذلك عن سالم بن حفصة أن عمر بن سعد قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد اللّه إن قِبَلنا ناسا سفهاء يزعمون أني **أقتلك!** فقال له الحسين عليه السلام: إنهم ليسوا بسفهاء ولكنهم حلماء، أما إنه يقرّ عيني أن لا تأكل من برِّ العراق بعدي إلا قليلا

٤ـ في البحار (٣٠٧/٤٥) نقلا عن أمالي المفيد بسنده عن عم محمد بن سليمان أنه قال ـ في قصة طويلة ـ: «... فقلنا: ما بقى أحد من قتلة الحسين إلا رماه اللّه ببليّة في بدنه...»[٤٠]

وكذلك في البحار (٣٠٧/٤٥) نقلا عن ثواب الأعمال لابن بابويه بسنده عن يعقوب بن سليمان قال: سمرت أنا ونفر ذات ليلة فتذاكرنا مقتل الحسين صلوات اللّه عليه فقال رجل من القوم: «ما

---

(٤٠) للمقارنة لاحظ الرواية التالية المروية في البحار(٣٠١/٤٤) عن عيص بن القاسم أنه قال:

ذكر عند أبي عبد اللّه قاتلُ الحسين بن علي عليهما السلام، فقال بعض أصحابه: **كنت أشتهي أن ينتقم اللّه منه في الدنيا، فقال: كأنك تستقل له عذاب اللّه، وما عند اللّه أشد عذابا وأشد نكالا**

تلبّس أحد بقتله إلا أصابه بلاء في أهله ونفسه وماله ...»

أرى من الصعب جدا على المرء أن يصدق هذا النوع من القصص حتى لو افترض سلامة متنها وقوة اسنادها ما لم تكن مسندة إلى معصوم إسنادا يجعلها حجة[٤١]، وليس الأمر كذلك ههنا، وأرى أنه يكفي مبررا للشك في صحتها أنه يؤثر تأثيرا عكسيا على التعاطف مع مظلومية الحسين عليه السلام إذ يخففها في النفس، الأمر الذي لم يحصل، بل بقيت حية في النفوس كما أرادها أئمتنا عليهم السلام ... ثم إن هذا يبدو متنافيا مع الروايات القائلة ـ بصورة أو أخرى ـ أن الحسين عليه السلام «ثار اللّه في الأرض والدم الذي لا يدرك ترته أحد من أهل الأرض ولا يدركه إلا اللّه وحده....» كما في الزيارة المروية عن أبي عبد اللّه عليه السلام[٤٢]

ومن هذا الباب ـ في نظري ـ ما قام به «المختار بن أبي عبيدة» بغَضّ النظر عن كون الرجل مخلصا أو غير مخلص في قيامه بأخذ الثار، فإني أرى من الطبيعي أن كان عمله قد أثّر تأثيرا سلبيا على التعاطف الصالح مع الحسين عليه السلام، بالإضافة إلى أنه ساهم

---

(٤١) الفرق بين ما هو حُجّة شرعا من النصوص المسندة الى معصوم وبين ما ليست كذلك مبحوثٌ في كتبٍ متخصصة

(٤٢) **التِّرة**: الثار، أو شيء قريب منه، والرواية مذكورة في البحار ج١٠١ ص١٦٨، ويلاحظ في نفس الجزء موارد أخرى قريبة مما ذكرتُ، وتلاحظ أيضا رواية الكافي في الجزء الأول (باب مولد الحسين عليه السلام)

في تحريف غضب الناس عن الدين المتجسد في الأمة التي قتلت الحسين عليه السلام إلى أناس معينين كأشخاص ...

وبالإضافة إلى هذا وذاك فإني أرى أن هناك آثارا ضارة أخرى كذلك ترتّبت على ثورة المختار وكانت كفيلة بتشويه مسيرة الشهادة لولا عناية اللّه تعالى وجهود الأئمة عليهم السلام...

وإني لأتعجب من تركيز كثير من المؤمنين على عمل المختار واعتباره عملا دينيا عظيما... فالمتوقع منهم أن يحتاطوا فيه ـ على الأقل ـ ويكفي في ذلك ما ورد من الروايات الذامة في حقه، منها ما عن الصادق عليه السلام أنه قال:

«إنا أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أصدق البرية لهجة وكان مسيلمة يكذب عليه ..... وكان أبو عبد اللّه الحسين بن علي عليه السلام قد ابتلي بالمختار[٤٣] ...»

ومهما كان أمر المختار، فإن في هذا الباب، أي «**باب ما عجّل اللّه به قتلة الحسين (ع)**»[٤٤] يجد المرء من القصص ما أرى أن

---

(٤٣) يلاحظ ج ١٨ ص١٢٢ وج١٤ ص٢٦٦ من معجم رجال الحديث لسيدنا الخوئي قدس اللّه نفسه، ولاحظ التعليقة (١٠) في قسم التعليقات

(٤٤) هذا بعينه هو عنوان **بابٍ** في بعض الكتب تُذكر فيه قصص عما أصاب قتلة الحسين عليه السلام من البلاء

المؤمن لا فقط يستحيي منه ويشعر بغضب شديد تجاه من اختلقها لمسخ مقتل الإمام وتشويهه ... بل يشعر بألم وارتباك وحيرة وخوف من غفلةٍ قاتلةٍ لبعض العلماء رغم ما لهم من عظمة وإخلاص ...، فكم من قصة قد حاكها عدوٌّ ماكر، أو صديق جاهل أحمق فاقتحمت كتبا معروفة، فتداولها الناس باسم الدين حملا لأمر تلك الكتب على الصحة، وخطأً وغفلةً، ومن لم يستطع أن يتقبلها، ولم يقدر على التمييز بين الأصيلة والدخيلة من النصوص، أو كان قليل الحرص على الإيمان ... تَرَكَ الدين كله، أو اجتهد ـ على أفضل التقادير ـ أن يجد له مجالا خارجا عن متناول العقل فكان أن أمسى «دينه» ما لا تضره التناقضات والأوهام مادام هو لا يتعامل معه دينا قيما وملّة وطريقة سالكة في الحياة!

ولعل من نافلة القول أنه ليس جميع هؤلاء القصاصين في درجة واحدة من الدهاء والمكر فمنهم من هو ساذج مكشوف الكذب، ومنهم من يحيك قصته بطريقة تجعل اكتشاف أمرها صعبا، ومنهم من يستطيع أن يستعمل من المكر كثيره فلا ينجو من الوقوع في مصيدته **إلا من سبقت له من اللّه الحسنى**، فإلى اللّه المشتكى ...

٥ـ في البحار (٣٨٨/٤٤) نقلا عن محمد بن أبي طالب:

«ثم أرسل الحسين عليه السلام إلى عمر بن سعد ... إني أريد أن أكلمك فالقَني الليلة بين عسكري وعسكرك .... فلما التقيا..... فقال له

الحسين عليه السلام: «ويلك يا ابن سعد أما تتقي اللّه الذي إليه معادك؟ أتقاتلني وأنا ابن من علمت؟ ذر هؤلاء القوم وكن معي فإنه أقرب لك إلى اللّه تعالى

فقال عمر بن سعد: أخاف أن يهدم داري، فقال الحسين عليه السلام: أنا أبنيها لك، فقال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي، فقال الحسين عليه السلام: أنا أخلف عليك خيرا منها من مالي بالحجاز، فقال: لي عيال وأخاف عليهم؛ ثم سكت ولم يجبه إلى شيء

فانصرف عنه الحسين عليه السلام وهو يقول: ما لَكَ؟! ذبحك اللّه على فراشك عاجلا، ولا غفر لك يوم حشرك، فواللّه إني لأرجو أن لا تأكل من بُرّ العراق إلا يسيرا، فقال ابن سعد: في الشعير كفاية ـ مستهزئا بذلك القول ـ»

ونقل القصة السيد بحر العلوم (ص٢٧٤) بزيادة: أن الحسين عليه السلام قد ضمن لعمر سلامة عياله، كما ونقله أيضا السيد المقرّم[٤٥] ببعض الفوارق منها روايته أن الحسين عليه السلام قال لعمر: أعطيك «البغيبغة»[٤٦] وكانت عظيمة فيها نخل وزرع كثير،

---

(٤٥) مقتل الحسين عليه السلام ص٢٠٥، هذا وقد ذكر في الهامش أن مصدر الرواية هو كتاب تظلم الزهراء

(٤٦) في مجمع البحرين نقلا عن تاريخ المدينة (؟): البغيبغة تصغير البغبغ وهي البئر القريبة الرشا، والبغبغات والبغبغة: عيون عملها علي بن أبي طالب عليه السلام بينبع.... وأعطاها

دفع معاوية فيها ألف ألف دينار فلم يبعها

بغض النظر عما أجده من التهافت المنطقي بين المقطع الأول من الرواية حيث الدعوة إلى التقوى والتقرب إلى اللّه، وبين بقيتها حيث الدعوة إلى الدنيا، أو المزج بين الأمرين على أقل الفرضين، وبغض النظر عن تساؤل منطقي لم يعثر ذهني على إجابة صالحة عليه، وهو أنه كيف كان يعد الحسين عليه السلام ابن سعد بتلك الوعود القاطعة ولم يكن نجاته إلا محتملا على أحسن تقديرَيْها، أللهم إلا أن أفترض صحة الكلام الذي نقله أبو مخنف عن هانئ بن ثبيت الحضرمي، من: أن حسينا عليه السلام قال في اقتراحه على ابن سعد: «أخرج معي إلى يزيد بن معاوية، وندع العسكرين ..[٤٧] ...»، لكني لا أستطيع أن أفترض هذا، لا لتصريح

حسين بن علي عبدَ اللّه بن جعفر بن أبي طالب يأكل ثمرها ويستعين بها على دَينه على أن لا يزوج ابنته من يزيد بن معاوية

(٤٧) في الطبري ج٥ ص ٤١٣ عن أبي مخنف عن أبي جناب عن هاني بن ثبيت الحضرمي ـ وكان قد شهد قتل الحسين عليه السلام ـ قال: «بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو ابن قرظة بن كعب الأنصاري: أن القَني الليل بين عسكري وعسكرك، قال: فخرج عمر ابن سعد في نحو من عشرين فارسا وأقبل حسين في مثل ذلك فلما التقوا أمر حسين أصحابه أن يتنحوا عنه وأمر عمر بن سعد أصحابه بمثل ذلك . قال: فانكشفنا عنهما بحيث لا نسمع أصواتهما ولا كلامهما فأطالا حتى ذهب من الليل هزيع، ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره بأصحابه وتحدث الناس فيما بينهم ظنا يظنونه أن حسينا قال لعمر بن سعد: اخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندع العسكرين، قال عمر: إذا تهدم داري ..(الخ)

الراوي نفسه فحسب بأن الخبر لا أساس له غير أن الناس ظنوه كذلك فأشاعوه، ولا فقط لنفي عقبة بن سمعان القاطع أن يكون الحسين عليه السلام قد اقترح شيئا من هذا القبيل، ـ كما رواه أبو مخنف[٤٨] ـ، بل بالإضافة إلى هذا وذاك فإن هذا مما لا أستطيع قبوله إلا بتغييرات جذرية في صورة المسيرة ككل ...

أقول: بغض النظر عن هذا وغيره مما قد يكون فهمه بحاجة إلى شيء من التحليل العقلي الذي قد لا يتوفر لعامة الناس ...فإني

قال فتحدث الناس بذلك وشاع فيهم من غير أن يكونوا سمعوا من ذلك شيئا ولا علموه»

(٤٨) في الطبري ج٥ ص٤١٤ عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن جندب عن عقبة بن سمعان أنه قال: صحبت حسينا (ع) فخرجت معه من المدينة إلى مكة، ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة ولا بمكة ولا في الطريق ولا بالعراق ولا في عسكر إلى يوم مقتله إلا وقد سمعتها. ألا واللّه (قد تكون الهمزة زائدة، وفي كامل ابن أثير: فواللّه بدل: ألا واللّه) ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون ...، ولكنه قال: «**دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر ما يصير أمر الناس**»

هذا وإن نفسي تأنس بأن عقبة قد سمع جميع ما كان الإمام قد خاطب به الناس، لا بمعنى أنه كان حاضرا معه دائما، فإن هذا مما يصعب عليّ تعقله وإن كان محتملا، بل بمعنى أن الحسين عليه السلام كان يُطلع أصحابه ـ ومنهم عقبة ـ على ما كان يدور بينه وبين الذين كان يحادثهم، فإني أرى هذا مذهبا واضحا له في التعامل مع أصحابه «**أن لا يكون له دونهم سرّ**» حتى وإن لم يكن قد أعلنه شعارا في «الثعلبية» عندما أراد الأسديان إخباره بمقتل مسلم بن عقيل ...كما في الطبري (ج٥ ص٣٩٧)، ولا يؤثر على هذا الفهم ما لو ثبت أن عقبة كان قد قتل في المعركة، كما في معجم رجال الحديث نقلا عن الشيخ الطوسي رضوان اللّه عليه، أو لم يثبت نسبة الكلام إليه أساسا...

أرى أن لو كان الذي ذكر صحيحا لأضرّ بـ«مبدئية» الحسين عليه السلام في نفوس الناس آنذاك، فلم يدخلها شهيدا كما حصل، فإنهم كانوا يرون في ذلك الاقتراح نوعا من الرشوة للنجاة من الموت، أو الوصول إلى الحكم، بغض النظر عن كون ذلك حلالا شرعا أم لا، بل وحتى لو افترض وجوبه مثلا فإن النفوس العامة لم تكن تتفاعل معه وإن كانت تتفهمه أذهان المؤمنين بل تتقبله نفوس بعضهم، وإني أرى الأمر واضحا غنيا عن التوضيح

٦ـ في ج١ من الكافي (الحديث ٧ من باب مولد الحسين بن علي ـ ع ـ) بسند معتبر عن الباقر عليه السلام أنه قال: «لمّا نزل النصر على الحسين بن علي حتى كان بين السماء والأرض ثم خُيّر: النصر أو لقاء اللّه؟ فاختار لقاء اللّه»

أرى أنه لو كان معنى الرواية ما يتراءى من ظاهرها وعرفه الناس كذلك لما تعاطفوا مع مظلمته كما فعلوا، بالإضافة إلى أن الاعتقاد بهذا الظاهر لا يتسنى للمرء إلا بتغير شامل في فهمه للمسيرة[٤٩]،

---

(٤٩) وذلك لأن هذه الرواية تحكي رفض الإمام عليه السلام للانتصار على أعداء اللّه، وهو ما لا يتوقعه المؤمن فيرتبك ذهنه في فهمه كما قد أشير إليه في المتن ... فهي تختلف بهذا عما يُثبت فضيلة أو كرامة للإمام ليتلقاها المؤمن كسائر الفضائل والكرامات الثابتة بإجمالها للإمام عليه السلام، كما وأنها تختلف عن النصوص التي دلّت على رغبة الإمام في الشهادة كالذي في الطبري (٤٠٣/٥)ـ مثلاـ، وأيضا عن النصوص التي دلّت على علم الإمام (ع) بمقتله ...

بل في فهمه للإسلام ككل، حيث أن ليس الحسين عليه السلام إلا مظهرا من مظاهر الدين، وإن كان ـ بسبب وآخر ـ من أبرزها ظهورا، هذا كما أجده أنا وأراك تجده مثلي إن راقبت نفسك صادقا ...، فلهذا وذاك وغيرهما أرى من الطبيعي أن يبحث ذهن المؤمن عن معنى آخر للرواية متناسبٍ[٥٠] مع محكمات الدين التي هو يعتقد بها والتي لا يمكنه التخلّي عنها ولا أن يتقبل أمرا على خلافها، وإن لم يستطع ذهنه أن يفهم لها معنى مناسبا انتظر متسائلا إلى أن يفهمه ... هكذا أرى ذهن المؤمن يتعامل مع النصوص الدينية بما فيها تلك الراجعة إلى الحسين عليه السلام، أللهم إلا أن لا يكون ممن يتعامل معه كإمام من أئمة الدين ومعلم من معالمه

---

(٥٠) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (١١) في قسم التعليقات

وأخيرا...

أشرت في صفحة سابقة إلى أمر أود أن أؤكده هنا فأقول: إن التعامل الصحيح مع ذكرى استشهاد الحسين عليه السلام الآن سيؤدي ـ بدرجة أو أخرى ـ إلى نتائج مشابهة لما أثمرته «**الشهادة**» في حينها، ولا يتسنى ذلك إلا بمعرفة ما قام به الإمام وما عمله أعداؤه فتجسَّد بالأمرين معا «**مظلومية صادقة صارخة**» من جهة، و«**دين متكامل مترابط كشجرة**» من جهة أخرى ..... فلو عُرف أمر الحسين عليه السلام، وأُعلنَ كذلك للناس في كلام ومقال وعمل لانكسرت به ـ كما أرى ـ حواجز في كثير من النفوس المستضعفة، وما أكثرها، لا كما عمله ويعمله بعض المؤمنين من «**إبداعات**»[٥١] تُشوّه «**أمر الإمام**» فلا تتقبله إلا نفوس متعصبة، ولا أظن مؤمنا عاقلا يشك في أن التعصب مما ينافي الإيمان، وإن لم يجد بشأنه نصًّا خاصا، فكيف وهو يجده[٥٢]

إن هذا الذي قلتُ لا يختص بالحسين عليه السلام، بل أراه يشمل الدين كله، إذ من الواضح ـ كما أرى ـ أن الإمام ليس إلا

---

(٥١) في روضة الكافي ص ٢٢٩: عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «**رحم اللّه عبدا حبّبنا إلى الناس ولم يبغّضنا إليهم . أما واللّه لو يروون محاسن كلامنا لكانوا به أعزّ، وما استطاع أحد أن يتعلق عليهم بشيء، ولكن أحدهم يسمع الكلمة فيحط إليها عشرا!**

(٥٢) تلاحظ الروايات الواردة بشأن العصبية في ج٢ من الكافي باب العصبية (ص٣٠٧)

معلما من معالم الدين وبابا من أبوابه[٥٣]، فلو تشوّه تشوّه بذلك مجموع الدين، بل لا يمكن أن يتشوّه هو إلا أن يكون قبلئذ قد تشوّه الدين بصورة شاملة، وأرى أن بإمكان أي امرئ أن يجرّب في نفسه فيجد أن أية صورة تأتي في ذهنه عن الحسين عليه السلام لابدّ وأن تكون منسجمة مع شجرة الدين الكاملة الموجودة في نفسه، أللهم إلا أن لا يمرّ دينه عبر إمامة الحسين عليه السلام فهنالك ستظل متبنياته كما هي مهما كانت صورة الإمام في نفسه، شأنه إذن شأن أيٍّ من الناس الذين لا يقعون في طريقه الذي يسلكه كدين، وإن كان بعضهم ـ بسبب أو بآخر ـ قد يثير عواطفه ويدعوه إلى القيام ببعض التصرفات الخارجية المحدودة ...

أجل لم يَعُدِ الحسين عليه السلام يعامَل الآن شهيدا وإماما، لأن المؤمنين لا يتعاملون مع الدين ـ ككل ـ شريعةً ومنهاجا إلَهِيًا شاملا، في مقابل الكفر الذي لا يمكن إلا أن يكون كذلك دينا شاملا، أللهم إلا أناسا هنا وهناك: قزعا كقزع الخريف ... وكأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يتحدث عنهم بقوله:

«... وكَمْ ذَا؟ وَأيْنَ أُوْلَئِكَ؟ أُولَئِكَ وَاللَّه الأقَلُّونَ عدداً وَالأعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، يَحْفَظُ اللَّه بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوهَا نُظَرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُوهَا فِي قُلُوبِ أشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ،

---

(٥٣) لتوضيح هذه الفقرة لاحظ التعليقة (١٢) في قسم التعليقات

وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ[٥٤] الْمُتْرَفونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الأَعْلَى، أُوْلَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَالدُّعَاةُ إِلَى دِيْنِهِ . آهِ آهِ شَوْقا إِلَى رُؤْيَتِهِم...[٥٥]»

وبهذا أختم هذا الحديث الذي طال أكثر مما توقعتُ، وتعقَّدَ في بعض نقاطه على خلاف ما أردتُ، فقد أردته سهلا في أسلوبه خفيفا على الذهن ...، ولكنه «**الضعف**» الذي يحول بيني وبين رغباتي دائما وفي جميع أموري.... ولا حول ولا قوّة إلا باللّه

والحمد لله ربّ العالمين

---

(٥٤) في بعض نسخ نهج البلاغة:«**استعوره**» فقد يكون صحيحا على أن يكون من «العوار» بمعنى العيب

(٥٥) يلاحظ النهج ص ٤٩٧ . ويلاحظ كتاب مصادر نهج البلاغة ج٤ ص١٢٨ الطبعة الثانية، بيروت، وباب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام من كتاب «**إكمال الدين**» لابن بابويه ليتبين أن نسبة الكلام إليه ثابتةٌ بإجماله

هذا ونقله أيضا ابن عبد ربّه في العقد الفريد (٢١٢/٢) عن أيوب بن سليمان، عن عامر بن معاوية، عن أحمد بن عمران الأخنس، عن الوليد بن صالح الهاشمي، عن عبد اللّه بن عبد الرحمن الكوفي، عن أبي مخنف، عن كميل النخعي

التعليقـات

التعليقة (١)

الصفحة ٦

المعرفة الدينية:

ما أستطيع الآن قوله لتوضيح الفقرة المذكورة في المتن هو: أن «**المعرفة**» ليست إلا نتاج عملية طبيعية يقوم بها الذهن بدفع من نزعة النفس الفطرية، ووِفق قابلياته الخاصة مستعينا بموادّ يتلقاها من الخارج بواسطة الحواس، ولا يرتبط الذهن ـ حسب فهمي ـ بأي شيء أكثر من هذا في حركته الفطرية الدائبة التي تجسدها «المعرفة» المتجددة باستمرار... (لاحظ التعليقة (٦) حيث تلقي شيئا من الضوء على كيفية تعامل الذهن والنفس)

فمثلا من ركائز النفس الأصيلة انجذابها إلى اللّه عزّ وجلّ، فهي تدفع بذلك الذهن ليبحث عن وجه اللّه الذي يؤتى منه، فيبحث عن الدين الذي شرعه، ومن دين اللّه ولاية الحسين عليه السلام فيبحث الذهن عنها إن لم تكن قد حُجبت عنه أو شُوّهت، فكلما علم المرء منها شيئا بذهنه وعرفته نفسه سعى إليه، ولكنه سوف لا يصل إليه بعمله بعد أن كان قد وصل إليه بذهنه وآمن به في نفسه، أي أنه قد يستطيع أن يعرف الولاية، ولكنه لا يستطيع أن يعمل وفقها إما لضعف فيه تكويني أو بيئي، وإما لوجود مانع خارجي ...[٥٦] وأذكر مثالا آخر

---

[٥٦] هذا حسب النظرة الشائعة من أن العمل ليس إلا ما يفعله الشخص ويجسده في

أكثر تحديدا ووضوحا ـ وإن لم يكن وافيا ببيان «علاقة العمل الدقيقة بالمعرفة» ـ وهو أن من المعروف الثابت تاريخيا وفقهيا أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله أبى أن يسقّف مسجده ...، فهذه مسألة مبحوثة في الفقه العملي المتداول، وقابلة للبحث في إطار أوسع للتعرف على وجه اللّه المتجسد في المساجد ... فهنا يرى أناس أن هذه المعرفة لاغية لعدم وجود مردود عملي لها في الحال الحاضر، وفي المقابل يرى امرؤ: أن هذه المعرفة ضرورية وإن لم تستتبع عملا خارجيا مباشرًا وسافرا...

ومثال آخر واقعي وهو أن جميع المؤمنين الآن يتبعون ـ بدرجة أو بأخرى ـ إمامة الدنيا في شؤون حياتهم راغمين أو راغبين، ولا أظن أحدا يرى الخلاص الكامل العامّ من هذه التبعية الشاملة إلا بظهور الإمامة الحق، فهنا نزعة نفسية تنزع المرء، بل تجعله ليدعو إلى عدم البحث عن معالم تلك الإمامة المجمدة عمليا الآن إلا بمقدار ما أمكن تطبيقه، بل قد تدعوه إلى ضرورة تفسيرها ومعرفتها وِفق مقاييس الإمامة القائمة ورغباتها، ورأي آخر يقول: أن الإمامة الحق يجب أن لا تُشرط

الخارج، وليس كذلك فإن الدين يعتبر نيّة الشخص القلبية عملا له مثلما يعتبر سلوكه الخارجي عملا . بل لا يعتبر الدين حركة الجوارح عملا إلا إذا كانت ناتجة عن نيّة القلب، ففي الكافي (٨٤/٢) عن علي بن الحسين صلوات اللّه عليهما أنه قال: «لا عمل إلا بنيّة»، فالنية هي العمل في الحقيقة كما في الكافي (١٦/٢) عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «... ألا وإن النيّة هي العمل» وعلى هذا من القرآن والحديث والعقل شواهد كثيرة ... فما لا يكون مقدورا هو امتداد العمل وظهوره خارجا، لا أصله ...

معرفتها بمردودها العملي ولا بأي أمر آخر، فإن الحق المطلوب لا يبحث إلا لأنه حق مطلوب فحسب، فإذا عُرف كذلك واعتُقد حصلت الرغبة، وكان السعي، فتجسّد السعي بشكل ممارسات عملية إلا أن يمنع عنه مانع من ضعف فردي ناتج عن وراثة أو تربية، أو ضغوط بيئية واجتماعية خاصة وعامة، قصيرة الأمد وطويلته، وبهذا كانت «**التقية**» ـ بمعناها الأوسع ـ دينا وضرورة عملية، في حين أنها غير جائزة بل غير ممكنة في المعرفة والإيمان...

هذا، ولعل هذه النزعة الشائعة، أي النزعة إلى ضرورة أن يكون للمعرفة مردود خارجي، كانت بعض السبب لاعتقاد بعض المؤمنين ـ منذ وقت مبكر وإلى الآن ـ بأن مردود معرفة الأئمة عليهم السلام لا يظهر في الدنيا بل في الآخرة وحدها ...

التعليقة (٢)

الصفحة ١٢

النفوس تتوقع نظاما ...

إن الفهم المذكور في المتن مستنبط من ملاحظتي لعامة النفوس والأذهان المتعارفة حيث لاحظت في سيرتها بوضوح أن النفوس تتوقع لكل حادثة طبيعية سببا طبيعيا محددا، فتقوم الأذهان بالبحث عن علل الأشياء، وتفسرها بها، ولا تكتفي ـ في الجانب العملي ـ بالتفسير الغيبي للأحداث الشهودية إلا بصعوبة وفي حالات استثنائية، وإن كان

يحتمله دائما في الجانب النظري . ولا أرى كثير اختلاف في هذا بين نفسَي المؤمن والكافر وذهنَيهما

والذي أجده من الفرق بينهما: أن المؤمن في حين أن نفسه تتوقع أسبابا طبيعية للأشياء الطبيعية، يعتقد أن اللّه عزّ وجلّ هو الذي جعل لكل شيء سببا، وأن له أن يغيّر ويمحو ويُثبِت ما يشاء، بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير...، بخلاف الكافر حيث يرفض الاعتراف بخضوع الظواهر المشهودة لمشيئة إلهية قاهرة، رغم أنه أيضا يعتقده في مكامن نفسه، إلا أن يكون قد توغّل في الكفر فتغيرت فطرته ....

وعلى أيّ حال فبناء على هذه الملاحظة الواضحة، وبما أني لم أجد في الإسلام ردعا عن هذه الطريقة متناسبا في الوضوح والتركيز لشيوعها ورسوخها في النفوس، بل وجدتُ أن تعامل النبي وآله عليهم السلام مع الأحداث كان أيضا ـ إجمالا ـ وفق هذه الطريقة، فوجدت الأسلوب صحيحا، فهل تراني مخطئا في هذا؟

هذا وإن توضيح هذه المسألة المهمة جدا واستيعاب جميع أبعادها بحاجة إلى بحث واسع ...

التعليقة (٣)

الصفحة ١٥

موضع الانفعالات النفسية من الدين

لقد نبّهني بعض الأعزّة أن هذه الفقرة المذكورة في المتن غامضةٌ تحتاج إلى توضيح، فحاولتُ أن أشرحها باختصار ولكنه صار بحثا طويلا مع شيء من التعقيد رغم إرادتي!، فبدأتُ أتردّد بين أن ألغيه وأحذف معه أصل الفقرة الغامضة، وبين أن أثبته، فرأيتُ أن أبقيه أملاً في أن يساهم في لفت بعض الأنظار والأذهان إلى مسائل أراها معالم للصراط المستقيم .....، فإليك الشرح بطوله وتعقيده المؤسف:

إني لاحظت أن هناك انفعالات تحصل في نفسي من دون أن تخضع بصورة مباشرة للمنطق أو الدين، فمثلا لو أن أحدا سبّني أو أهانني تأذّتْ بذلك نفسي، وإن كنت عاقلا أن تأذِّيَّ ضرٌّ لا نفع فيه، وكنت معتقدا بأن الدين يدعو إلى «العفو»، خصوصا إذا كان السّابُّ مؤمنا....

وإني أجد في نفسي أن الحالة التي ذكرتها ليست من الخصال التي تخصني وحدي، بل تعم الناس جميعا، وإن كانوا يختلفون في درجتها نتيجة اختلافهم الناتج عن الوراثة والتربية، بل وحتى الناتج عن السعي الشخصي إلى التعقل والتدين ...، وقد يكون الذي أجده من عموم هذا النمط من الانفعال النفسي ناتجا عن مشاهداتي المستمرة

للناس وحالاتهم، حيث لاحظتُ شيئا من الانفعال على كل مَن أوذِي إلا قليلا من الناس حيث لم يظهر لي أنهم قد تأذوا فعلا، أو نُقل أنهم لم يتأثروا كما عن المعروفين بالحلم في التاريخ كقيس بن عاصم ومعاوية بن أبي سفيان مثلا...، غير أن نفسي لم تستطع تقبل هؤلاء استثناء من الناس وخروجا على الطبيعة البشرية العامة، فاعْتَبَرَهم ذهني ممن استطاعوا التحكم في درجة الانفعال فلم يظهر، لا في حصول أصل الانفعال في نفوسهم....

هذا وأرى أن ذهني في هذا الذي فعل لم يكن بِدْعًا من الأذهان، فإني أعتقد أن الأذهان عامة كذلك تفعل...، بشرح لا أجد له الآن مجالا

وأما المعصومون....

ثم وإنه قد واجهتني في طول حياتي كثير من النصوص التي تتحدث ـ بصورة أو بأخرى ـ عن وجود درجة من هذه الحالة في جميع النفوس، بما منها نفوس الأنبياء والمعصومين عليهم السلام حيث كانوا يحزنون على موت أعزّةٍ لهم ـ مثلا ـ ...، ولم يستطع ذهني أن يقتنع **(بالتأويلات)** اقتناعا يؤهله لتمريرها إلى النفس بصورة عفوية، ومن المسار الطبيعي الذي تتلقى النفس عبره الفكرة التي كان الذهن قد تأكد من سلامتها وصلاحيتها لأن تُعتقد، ولم يبقَ عليه إلا أن يعرضها على النفس، فإن قبِلَتْها تَمَّ بذلك الأمر المؤلَّف من النظر

والتجربة فتحوّل بذلك إلى عقيدة فعلية .....

هذا وسواءً ءافْتُرِض أن النفوس المعصومة لا تنفعل أبدا إلا بما كان قد أذن اللّه به مسبقا، وبالتحديد، كما افترض في المتن، أم أن لها أيضا من الانفعال ما لا يرتبط بالذهن ولا تخضع لمقاييسه وأوامره، فإن تلك النفوس ـ على أيّ حال ـ تختلف عن النفوس العامة، لولا في أصل الانفعال ففي درجته وما تستتبعه من آثار في السلوك ....، فتشكل إذن إمامة وهداية ودعوة للنفوس المتعارفة، كما ذكرت في المتن

أجل، كذلك لاحظتُ النفوسَ في واقعها القائم، وأرى بعدُ أن الذهن المجاهد سوف يتساءل عن مدى شرعية هذا الواقع، وإني أحاول الإشارة إلى هذا البحث فيما يلي، مع ملاحظة أنه من أصعب المسائل الفكرية وأوسعها أفقا:

مدى شرعية هذه الحالة

قبل كل شيء إني أتوقع أن تكون هذه المسألة متناوَلة هنا وهناك بسببين على الأكثر: السبب الأول: وجود روايات قائلة بأن اللّه لا يحاسب العبد على «الهَمّ» ما لم يفعل إثما، والثاني: الجدال حول ضيق الصدر وغيره من الأحاسيس المنسوبة إلى الأنبياء في القرآن أو الروايات، وأما في غير هذين الموردين فإني لا أتوقع بحثهما ...، إلا ما يجده المرء في أقوال وكتابات المتصوّفة والعرفاء حيث يتناولون هذا النوع من المسائل ولكن وفق مذهبهم وبطريقتهم الخاصة...

ومهما كان الأمر فإني أحاول توضيحه من خلال الافتراضات الثلاثة التالية:

الأوّل: أن يكون اللّه يريد من العبد إخضاع شهوات نفسه وأحاسيسها إخضاعا فعليا كاملا له عزّ وجلّ، بأن لا تشتهي نفسه إلا ما يرضاه اللّه، بل لا يخطر فيها أي إحساس مهما كان قليلا وعابرا إلا بعد استئذان اللّه عزّ وجلّ ... ولا أظنّ هذا مقدورا لأحد من الناس، ويكفي شاهدا عليه ملاحظة النفس ونزعاتها بدقة وموضوعية، بالإضافة إلى كثير من القرآن والحديث الذي لو تدبره المرء لوجد الأمر واضحا جليا

الثاني: أن يجعل اللّه للعبد الحرية في أن يُطلق عنان نفسه لتنزع إلى ما تشتهيه، ويكتفي بترك المحرمات في الخارج، أو مضافا إليها شهوات معيّنة قد أُفتِيَ بحرمتها، كما أفتى بعض الفقهاء بحرمة أن يشتهي المرء امرأة أجنبية ـ مثلا ـ، أو أن يمنع نفسه عن أن تشتهي أيّ محرّم من المحرمات، ثم يُبيح لها أن تشتهي ما تشاء من الأشياء غير المحرمة ....

إني أرى أن هذا التصور باطل كذلك، رغم انتشاره الواسع لا في الأوساط العامة فحسب، بل في أذهان كثير من المفكرين البارزين حسبما كنتُ قد قرأتُ وسمعتُ من طرحهم وترويجهم له بصورة مباشرة وغير مباشرة، وأظن أسبابا لهذا التصور، منها: ما يُلاحظ من أن ما يسمى في

الحال الحاضر بـ«**الفقه**» يكاد لا يتناول الشهوات والأحاسيس النفسانية، ويتعامل معها بإهمال كأن لا حكمَ لها في الشرع ...، مع الغفلة عن أن إهمال الفقه للأحاسيس النفسانية إنما هو بسبب طبيعته المحدودة، حيث أنه كمعالج لقضايا عملية لا يستطيع أن يتناول إلاّ موضوعاتٍ محدّدةً قابلة للإشارة إليها بالضبط، والأحاسيس النفسانية تأبى بطبيعتها الانضباط والتحديد ..، فالمشكلة ـ حسب المصطلح الفقهي ـ ليست في مرحلة الملاك والثبوت، بل في مرحلة الجعل والإثبات ...، فبهذا وغيره لم يكن «الفقه» إلا جانبا من الدين

والسبب الثاني الذي أظنه هو النزعة الشائعة القاتلة التي أشرتُ إليها في منطلقات هذه الأوراق بعنوان «**الواقعية**»، بشرح أُوكِلُ استنباطه إلى القارئ

والسبب الثالث ـ كما أظن ـ: الاضطرار إلى تبني هذا الافتراض بعد أن كان الافتراض الأول باطلا، غفلة عن الافتراض الثالث الذي سأذكره

الدليل على بطلان هذا التصور

أرى أن القرآن المجيد يدلّ على بطلان هذا التصور، تارة بصراحة كقول اللّه عزّ وجلّ: «... وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ (البقرة /٢٨٤)، وتارة أخرى بما يتطلب شيئا من التدبر كقوله عزّ

وجلّ في سورة النساء/١٢٥: «وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ...» وغيرها من الآيات الكثيرة التي بتلاوتها جميعا ستتكوّن صورة واضحة مرتبطة بصور كثيرة أخرى لشتى المسائل، فتتولد من الجميع صورة موحدة تملأ الذهن وتصبغ النفس، فتطارد عفويًا جميع التصورات المخالفة لها...، كذلك هداية القرآن لِلتي هي أقوم، بشرح لستُ له متهيّئا، بل لا أظن إمكانه بصورته الصحيحة، فإني أراه مما يُدرَك ولا يوصَف

هذا بالإضافة إلى ما أجده في نفسي بوضوح، وأرى أن كل امرئ يجده من نفسه مثلي: أن الفطرة التي تشدّ الناس إلى اللّه وتجذبهم إليه هي نفسها ترفض هذا التصور ...

الافتراض الثالث: أن يكلف اللّه العبادَ بأن يُخضعوا له أنفسهم بكل ما لها من شهوات، بأن يوجّهوا وجهها إليه ويجعلوها على الصراط المستقيم. والكون على الصراط يعني التقيد بحدوده من جهة، والسعي المستمر في داخله وعلى امتداده حيث وجه اللّه من جهة أخرى، فإن من الواضح أنْ لا صراط إلا مع الحركة الدائبة، بل ليس «الصراط» في الحقيقة إلا الحركة الهادفة.....، فلو أمكن خضوع النفس الكامل التام للّه عزّ وجلّ لتوقفت الحركة التي لابدّ منها لكل امرئ مادام حيا...

وهذا هو الذي أراده اللّه عزّ وجلّ من العباد، وعليه في القرآن والسنة من الشواهد ما لو تدبره المرء لوجده من محكمات الدين ...

التعليقة (٤)

الصفحة ١٩

هل كان في المسيرة ما يستفزّ؟

قد يأتي في الذهن أن مجرد استجابة الحسين عليه السلام لطلب أهل الكوفة كان يعني استفزازا لأعدائه ضده وكافيا لجعله ظالما معتديا على حق غيره ...

أرى أن هذا التصور خاطئ، ويكفي دليلا على ذلك ما أشرت إليه من أن الناس إنما بكوا الحسين عليه السلام كـ(**مظلوم**)، وهذا الأصل المحكم يدل ـ إجمالا ـ على أن (**الاستجابة**) لم تكن تعني أنه عليه السلام قد خرج على الخلافة القائمة وشق عصا الأمة المتماسكة، وذلك في نظر أغلب الذين بكوه، لا أفرادٍ من هنا وهناك من ذوي المواقف المسبقة موالية له أو معادية

والسر في ذلك أن الأمة ـ بشكل عام ـ لم تكن ترى للسلطة أن تجبر الناس على البيعة، وبما أن أهل الكوفة لم يكونوا قد بايعوا ليزيد فكانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يبايعوا من شاؤوا، وكان الآخرون لا يرونهم بذلك خوارج ظالمين ما لم يكن قد استقر الأمر بعدُ ليزيد ... فكان استجابة الحسين عليه السلام لهم ـ في نظر الناس ـ جائزة غير جائرة

نعم أرى أنْ لو كان أهل الكوفة قد بايعوا يزيد من قبل ثم نكثوا ودعوا الحسين عليه السلام فاستجاب، أو أن الإمام كان قد بايع ثم نكث، أو أنه لو لم يبايع واستجاب لدعوة أهل الكوفة ـ كما فعل ـ فحدث أن تولى الأمر فيها **ثم خرج لقتال يزيد فقُتل** كان بذلك في نظر كثير من الناس ظالما ـ بدرجة أو بأخرى ـ فلم يبكوه كما بكوه فعلا.. ومن الموضحات لهذا الذي قلت أن لم يُنقل أن أحدا من الذين نهوه عن الخروج قد اعتبر مسيرته عدوانا ومُنكَرا باستثناء ما نقل عن ابن عمر[٥٧] الذي كان رأيه في هذا النوع من المسائل بالذات شاذًّا ... وكانت تلك النظرة العامة وليدة عوامل مختلفة متداخلة لا يتسنى لي الحديث عنها الآن، بل كان علَيَّ أن أهمل هذه التعليقة المختصرة أيضا لولا تصور بعضٍ أن في الأمر إبهاما ...

التعليقة (٥)

الصفحة ٢٠

حول بعض كُتُب ابن طاووس (ره)

قال المجلسي (ره) في مقدمة البحار ص ٣١: «وتركنا منها (أي من كُتُب ابن طاوس) ربيع الشيعة لموافقته لكتاب إعلام الورى في جميع الأبواب والترتيب، وهذا مما يقضى منه العجب!»

---

(٥٧) في البحار (٣٦٤/٤٤) نقلا عن الملهوف لابن طاووس: ... ثم جاء عبد الله بن عمر فأشار عليه (أي على الحسين عليه السلام) بصلح أهل الضلال وحذّره من القتل والقتال

وقال الشيخ الطهراني (ره) في الذريعة (٢/٢٤٠ـ ٢٤٢) عند ذكره لكتاب (إعلام الورى بأعلام الهدى) للطبرسي المعروف بتفسيره المتوفى سنة ٥٤٨ «... ومن غريب الاتفاق مطابقة (كتاب ربيع الشيعة) المنسوب إلى السيد ابن طاوس المتوفى سنة ٦٦٤ مع هذا الكتاب وتوافقهما حرفًا بحرف إلا اختصارات قليلة في بعض الفصول وزيادات في الخطبة، فإن ربيع الشيعة مصدّر باسم السيد ابن طاوس ومصرح فيه باسم الكتاب وأنه ربيع الشيعة ...

وقد احتمل بعض المشايخ كون منشأ هذه الشبهة أن السيد ابن طاوس حين شرع في أن يقرأ على السامعين كتاب إعلام الورى هذا حمد اللّه .... ثم مدح الكتاب وأثنى عليه بقوله:... (إن هذا الكتاب ربيع الشيعة) والسامع كتب:..... يقول السيّد.....

وحكى شيخنا (يقصد النوري ره) في خاتمة المستدرك احتمالا آخر عن بعض مشايخه وهو أن السيد وجد إعلام الورى ناقصا من أوله فاستحسنه وكتبه بخطه من غير اطلاع له على اسمه واسم مؤلفه، فكتب عليه مدحًا له أن هذا الكتاب ربيع الشيعة، ولما وُجد بعده بخطه فظُن أنه تأليفه وأنه سماه بربيع الشيعة .....»

هذا ولاحظ أيضا كتاب روضات الجنات (٤/٣٢٥ـ ٣٣٨) للخوانساري (ره) وما أبداه من ملاحظات حول بعض ما ذكره السيّد (ره) في كتبه

التعليقة (٦)

الصفحة ٣٢

الذهن والنفس:

إن الكلام المذكور في المتن مبتنٍ على أساس من فرضية أراها صائبة في مورد عمل كل من الذهن والنفس، وفيما يلي محاولة توضيحها:

قبل كل شيء، من الضروري الانتباه إلى أني إنما أنطلق في هذا الحديث من ملاحظاتي وتجاربي الشخصية المحدودة، فهي إذن قابلة للنقد ما لم تبتنِ على أساس من دراسات ميدانية دقيقة واسعة، الأمر الذي لم يكن بإمكاني القيام بها، ولا الاستعانة بالدراسات الكافرة المتوفرة في هذا المجال .....

لقد ذكرتُ في صفحة سابقة من هذا الكراس: أني أقصد بـ«**الذهن**» ما يفكر به المرء، وبـ«**النفس**» ما يحسّ به ويتفاعل ويحب ويبغض ... وما يتحوّل به نتاج الفكر إلى صبغة وإيمان، فأقول:

الذهن في خدمة النفس

أجد أن الذهن باعتباره أداة للتفكير المستمر إنما يخضع لأوامر النفس، لا في أن يفكر أو لا يفكر، بل في اتجاه التفكير ومساره، فإن النفس هي التي تقود الذهن إلى الجهة التي تنزع إليها، وبالأحرى: إن النزعة الغالبة من نزعتي النفس الرئيسيتين المتصارعتين، أي الشهوة

والنزعة إلى الحق، هي التي تحدّد مسار الذهن في عملية التفكير التي يقوم بها الذهن بإمكانياته الذاتية، وهو بهذا يشبه حصانا يقوده راكبه

فإذا كانت النفس على فطرتها التي من أساسياتها النزعة إلى الحق والانجذاب إليه، انتقل شوقها إلى الذهن فقام بالبحث عن ذلك الحق، كما في عمل إبراهيم عليه السلام في البحث عن «**ربّه**»، حيث أن نفسه بفطرتها ـ كأيّ نفس أخرى ـ كانت تنزع إلى ربٍّ لو لم تعثر عليه ظلت قلقة غير مطمئنة، فنهض ذهنه بالبحث عما أوحته النفس إليه، فكلما اكتشف شيئا من الكوكب والقمر والشمس عرضه عليها، فلم يكن أيّ منها ذلك الرب الذي كانت تنزع إليه نفسه وتحبه فأنكرَتْه ورَفَضَتْه إلى أن وجدته في الذي فطر السماوات والأرض ....

ومن الطبيعي أن للنفس شهوات أيضا مضافا إلى تلك النزعة الفطرية التي ذكرتُ، أي أن اللّه «أَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا» كما في القرآن الكريم، فالنفس بشهوتها توحي إلى الذهن أن يبحث عن أسهل السُبُل وأريَحِها لنيلها، فيستجيب لها الذهن ويقوم بذلك النمط من البحث أيضا

وليست هنالك مشكلة إلى هذا الحد، ولكن من طبيعة الشهوة أن الشيطان يزيّنها لتطغى وتسيطر على النفس، فكان الاصطدام والتصارع بينها وبين نزعة النفس إلى الحق، فقد تنتصر الشهوة حينا، فتطلب من الذهن أن لا يفكر إلا في الشهوات واكتشاف أشهى الطرق إليها فيفعل، فتارة يستمر هذا الانتصار ويترسخ إلى أن تختنق النزعة إلى

الحق، فيصبح الذهن في خدمة الشهوات مستجيبا لندائها وحدها، كما هو في العالم الآن

ومن هذا الباب أن النفس قد توحي إلى الذهن أن يجادل عنها وتبرّر...، ومن الجدل أن يفكر في أمور لا تمسّ النفس ولا تثقلها بأي عبء، فهي تشتهي الراحة فتأمر الذهن بأن يريحها من البحث الهادف، بأن يلهو في حركته ولا يراجعها مادام لا يستطيع السكون والبقاء من دون تفكير

وتارة أخرى كانت النزعة إلى الحق ما زالت حيّة في النفس وإن اختفت ولم يظهر لها نشاط، فتطلب هذه النزعة بدورها من الذهن أن يبحث ـ فيما يبحث ـ عن وسيلة صالحة للتصدي للشهوة المستفحلة، فيستجيب لها الذهن، إلا أن تصل الشهوة درجة من الطغيان لم يكن معها لنزعة النفس إلى الحق صوت مسموع، كما أشرتُ

النفس والعواطف

ليس معنى ما ذكرت من طغيان الشهوة واستحواذها على النفس أن لا يبقى إذن أي شيء آخر فيها غير الشهوة وتوابعها، فقد تبقى فيها خصلة غامضة وهي أنها تنبسط وترتاح لأمور وتنقبض وتتأذى من أمور أخرى، ولا يحضرني الآن مثال أرتضيه لما تنبسط به النفس، وأما المثال لما تنقبض منه هو الظلم كما ذكرتُه في المتن .....

أجل فقد تستحوذ الشهوة على النفس وتخنق فيها نزعتها إلى الحق ولكن مع ذلك سوف تبقى فيها الخصلتان المذكورتان المتأصلتان فيها (أو المترسبتان فيها بسبب العادة مثلا)، فالنفس المحكومة بالشهوة وإن لم تعد تنزع إلى الحق ولكنها تتأذى بالظلم مثلا، وإن كان عمل الظلم في نفسه مشتهى للنفس، وليس الشاهد الوحيد على هذا ما نُقل عن عمر بن سعد من تأذيه من مقتل الحسين عليه السلام ....

ثم إني في اعتباري الخصلتين المذكورتين من العواطف المتأصلة في النفس (أو المتحصلة فيها) قد جاريتُ النظريتين المعروفتين، وإلا فإني أحتمل أن هذا النمط من العواطف هو الآخر نوع شهوة للنفس، بتوضيح ليس مجاله الآن ... فأعتبره هنا كأن لم يكن

وعلى أي حال فإني أرى أن شهادة الحسين (ع) إنما دخلت النفوس من منفذ العاطفة، أي المنفذ الوحيد غير الخاضع لسلطان الشهوات في أكثرية النفوس آنذاك، فأوجدت فيها انقلابا، فاهتزت النفوس وتحررت من سلطة الشهوات، فتحررت الأذهان ـ بتبع ذلك ـ فلم تعد تخضع لسلطان الشهوات في اتجاهها للبحث، كما كانت قبلئذ ...

هذا وبما أن الشهادة كانت هادفة فكان من الطبيعي أن لا يقتصر تفاعل النفوس معها على التعاطف وحده، بل يجعلها تتطلع إلى معرفة الحسين (ع) وما كان يدعو إليه، فتتجاوب معها الأذهان، كما هي

سنتها في التعامل مع النفوس، فتهتم بمعالم الحق التي كانت تكتنفها المسيرة كمؤشرات، وتبحث عن روابطها وتقوم بملئ فراغاتها .... فتحصل في النتيجة على صورة مترابطة شجرية عن دعوة الحسين (ع)، فتنتقل من ثَم وبشكل تلقائي إلى النفوس المتهيئة المتطلعة فتكون إيمانا صالحا ونورا وبصيرة ...، كما أشرتُ إليه في المتن

إني أجدني هنا مضطرًّا لبتر هذا الحديث المهم جدا والمتشعب المتشابك كثيرا، آملا أن لا يؤثر هذا البتر في الحديث تشويها يضله عن الهدف الذي كُتب لأجله ....

التعليقة (٧)

الصفحة ٣٢

شجرة «المسيرة»:

أقصد بشجرة المسيرة: صورة مسيرة الحسين عليه السلام الموجودة في ذهن المؤمن ـ تبعا لما في نفسه ـ شيئا موحدًا مترابطا كترابط فروع الشجرة بأصولها، وذلك على أساس من قاعدة أراها عامة في تعامل الذهن مع المفاهيم التي يجهزها للنفس حيث يقوم بربط بعضها ببعض ويكوّن من مجموعها صورة موحدة لها أصول وركائز تتمحور حولها بقية النقاط الموجودة في تلك الصورة بطريقة متدرجة ومتسلسلة، وإلى أن يستطيع الذهن ذلك الربط بقي حائرا قلِقًا غير مطمئن ... هكذا

جرّبتُ في ذهني وفي أذهـان أنـاس آخريـن، ألا تلحظه أنت فـي ما يقوم بـه ذهنك من سلوك؟

هـذا، وإنـي لـم أجـد كلمـة تـؤدي هـذا المعنى الذي ذكـرت كما تؤديه كلمـة «**الشـجرة**» فتقصّـدت استخدامها، خصوصـا وأن القـرآن العظيـم ذكرهـا كذلك، وفي نفس الاتجـاه كمـا أعتقـد

التعليقة (٨)

الصفحة ٣٤

الحسين عليه السلام الشهيد ...

فيمـا يلـي نموذجـان مـن تغلغـل الحسين عليـه السـلام مـع أصحابـه شـهداء فـي نفـوس أنـاس، رغـم أنهـم لـم يكونـوا مـن شيعته، ولـم يعتقـدوا إمامتـه الشـاملة:

الأوّل: فـي ص٤٧٠ ج٥ مـن الطبري: أن عبيـد اللّه بـن الحـر (وهـو الـذي دعـاه الحسين (ع) إلـى نصرتـه فلـم يستجب ..،كما في ص٢٢٦ مـن الإرشـاد وغيـره) أنشـد قصيـدة فـي رثـاء الحسين عليـه السـلام وقـال فيها:

فيـــا ندَمِـي ألا أكـونَ نصرتـه ألا كل نفس لا تُسَـــدّدُ نادمة
ســقى اللّه أرواح الذيـن تــآزروا على نصره سُقيا من الغيث دائمـة
لعمري لقد كانوا مصاليت في الوغى سِراعا إلى الهيجـا حمـاةً خضارمة

وما إن رأى الراؤون أفضلَ منهم لدى الموت سادات وزهر قماقمة

الثاني: كذلك ينقل الطبري (١٥٦/٦) عن عروة بن المغيرة أن مصعب بن الزبير حين خرج لقتال عبد الملك بن مروان وقعت عينه عليَّ، فقال: يا عروة إليّ، فدنوت منه، فقال: أخبرني عن الحسين بن علي كيف صنع بإبائه النزول على حكم ابن زياد، وعزمه على الحرب؟ فقال:

وإن الأُلى بالطفّ من آل هاشم تأسَّوا فسنّوا للكرام التأسِّيا

هذا وفي اللسان: «تآسوا فسنّوا للكرام التآسيا» من المؤاساة، أو من التأسّي الذي بمعنى التعزّي، وذكر أن مصعبا تمثّل به يوم قُتل

التعليقة (٩)

الصفحة ٣٨

ترابط الدعوة والداعي:

لقد كتبت الذي في المتن في بداية السنة ١٤١٥، وأما الآن حيث ٢٢ ذق ١٤١٧ فإني أجد الفقرة المذكورة مشوّشة ناقصة تحتاج إلى شيء من التعديل والتتميم .. فارتأيت أن الأفضل للقارئ إن شاء الله أن أقوم بعلاج المشكلة في تعليق بدل حلّها عن طريق الإصلاح المباشر لعبارة المتن نفسها ... وهكذا كان التعليق التالي:

إن ما نجده من ظاهرة عدم تفريق الناس بين الداعى ودعوته طبيعي

وصحيح نابع من نزعة فطرية، فهي في أساسها من مقومات إنسانية الإنسان التي بها يهتدي ويصلح، ولكنها تنحرف وتضل عن مسارها الصحيح فتكون بذلك مشكلة، شأنها في ذلك شأن جميع ما أودعه اللّه عزّ وجلّ في الإنسان من غرائز ونزعات وميول وتطلعات ...

فلو كان هنالك داع صالح يدعو بدعوة صالحة وعرفه الناس وصدّقوه واتبعوه لم تكن مشكلة، بل كان خير وصلاح وهداية، إذ أن الداعي كذلك لا يكون إلا وهو ذائب في الأمر الذي يدعو إليه، فهو إنما يجاهد لإعلاء ذلك الأمر وحده في الأنظار والنفوس باذلا مهجته فيه وراغبا في الشهادة لأجله

وبما من المفترض أن الداعي الصالح يعلم ـ فيما يعلم ـ طريقة تعامل النفوس مع الدين، وأنها لا تفرق بين الداعي ودعوته، فإما تحبهما معًا وتؤمن بهما جميعا، أو ترفضهما جميعا ... فهو إذًا لا يحاول الفصل بينه وبين دعوته لتنفرد هي وحدها باهتمام الناس، لكونها محاولة فاشلة من جهة، وسببًا لتشوّه دعوته وانحرافها من جهة أخرى ... لكنه يتصرف ـ بل يكون ـ بحيث لو أن أحدًا أحبّه واهتم به لم يقف عند شخصه، بل حوّله ذلك تلقائيا إلى الاهتمام بدعوته وحبّها، أي كلما كبُر الداعي في نفس أحد كبُرت دعوته فيها، فيظل هو أصغر منها ومؤشرًا إليها فحسب ...

وأما لو أن «الداعي» لم يكن صالحا إما لجهله بأصل الموازنة

المذكورة أو بأهمّيتها، أو لعدم إيمانه بها ... فلابدّ إذن أن تنقلب الموازنة فيبرز الداعي في نظر الناس ويعلو على حساب دعوته ولو افترضت صالحة ومهتدية في نفسها فتحصل المشكلة العامة التي قد أشير إليها في المتن

إن أهمية هذه الموازنة العظمى هي ما كان النبي صلّى اللّه عليه وآله قد أكده في غدير خُمّ بقوله ـ كما في البحار (١٢١/٣٧) مثلا ـ: «... ألا وإني سائلكم غدا ... وماذا صنعتم بالثقلين من بعدي ... أمّا الثقل الأكبر فكتاب اللّه عزّ وجلّ ... وأما الثقل الأصغر فهو حليف القرآن وهو علي بن أبي طالب وعترته، وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض ...»

هذا مضافا إلى أن طبيعة الدعوة الصالحة تأبى إلا الموازنة المذكورة، أي أنها لا تتم إلا بأن تظل أكبر من القائم بها بشرح لا مجال له الآن

وعلى أي حال فإن الذي قلته إنما يتجسد بشكله الكامل في الداعي المعصوم كالنبي والأئمة عليهم السلام، حيث لن يفارقوا الكتاب أبدًا فكان كلهم جهادًا في سبيل اللّه وحده لا شريك له، ولإعلاء كلمته ...

ويكفي للفت الانتباه إلى هذه الحقيقة الكبرى المغفولة ما رواه الكافي (٦/٢٧٠ـ ٢٧٢) عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وما رواه البحار (١٦/٢٨٢)، وما نقله نهج البلاغة في الخطبة ٢١٦

(ص٢٣٥ ط صبحي) عن أمير المؤمنين عليه السلام، ونصوص كثيرة جدا منتشرة في كتب الحديث ... بل ولا يحتاج المؤمن العاقل إلى أي شاهد آخر على هذا الأمر بعد أن يجده واضحا جليا فيما قصّه القرآن الكريم عن الأنبياء بما يحدّد موقعهم من الدين، وخاصة ما قد كرّره بصور مختلفة من وصف العلاقة القائمة بين نبيّنا (ص) وبين دينه ودعوته ...

وأما من ليس معصوما فغاية ما يستطيعه هو أن يقتدي بالمعصومين عليهم السلام ويتبعهم في طريقتهم فيما يقوم به من الدعوة إليهم والسعي لإحياء أمرهم بعد معرفته ومعرفتهم ... ويجاهد لئلا يتعدى هذا الدور في النفوس والأنظار، ولعمري إنه جهاد صعب مستصعب لا يعرفه ولا يتحمله إلا مؤمن امتحن اللّه قلبه بالإيمان ... ولا حول ولا قوة إلا باللّه

هذا، وإن الذي ذكرته في هذه التعليقة لم يكن إلا مقتطفات متفرقة مما يسمّى في الإسلام بـ«الولاية» وبما أنها ذات شجون كثيرة مترابطة بل متداخلة فلا يتوقع أن تكفي إشارات مقتضبة كهذه للإلمام بها إن لم تشوهها، كما لا ينبغي لأحد أن يتوقع فهم هذا النمط من المسائل بل أيّة مسألة من الدين بشكل عام إلا بمعرفة «الولاية» باعتبارها مفتاح الأشياء التي بُنِيَ عليها الإسلام، وباب الأشياء ... كما في الكافي (٢/١٨- ١٩)

التعليقة (١٠)

الصفحة ٤١

رأي السيّد الخوئي (ره) في «المختار»

لقد اهتمّ السيّد الخوئي رحمة اللّه عليه بالمختار وخصّص للحديث عنه صفحات من موسوعته «معجم رجال الحديث» على الرغم من أن المختار لم يكن من أصحاب الحديث ورواته ... وفي هذا الصدد تعرض للرواية المذكورة في المتن وصرّح بكونها صحيحة من جهة السند، لكنه مع ذلك لم يستسغها فعلّق عليها بما يلي:

«لعل فيها تحريفا فإن المختار بن أبي عبيدة كان في الكوفة والحسين بن علي عليهما السلام كان بالمدينة، ولم ينقل ولا بخبر ضعيف كذبٌ من المختار بالنسبة إلى الحسين عليه السلام، وغير بعيد أن المختار الذي كان يكذب على الحسين عليه السلام أن يكون رجلا آخر غير المختار بن أبي عبيدة ...»

وفيما ارتآه السيد مجال لبحث مفيد لا يسعه هذا الحديث ...، ولو كان القارئ مهتما بالأمر مُلِمًّا بمقدمات هذا النوع من المسائل لعرف ذلك المجال بنفسه ـ كما أظن ـ، فأوكل الأمر إليه ...

ثم ان هناك بعض الروايات المادحة للمختار ولكني وجدتها إما ضعيفة الاسناد أو مبهمة لا تعني مدحا صريحا ..، وهي مذكورة في ج ١٨ من المعجم

هذا وإني لم أرَ لـلأئمة عليهم السـلام تركيزا على الرجل في الزيـارات المأثورة عنهم وفي غيرهـا من الطرق المسلوكة للتفاعل مع الحسين عليه السلام، كما أني لم أجد اهتمامـا به من علمائنا إلى أن نَجَمَ جعفر بن محمد بن جعفر المعروف بـ «**ابن نمـا**» المتوفى أبوه عام ٦٤٥، والـذي ألّف رسالة شرح الثار ـ وليته لم يفعل ـ لاحظها في الجزء ٤٥ من البحار. وعلى أي حال فهذا أراه شاهدا آخر على ما قلت....

التعليقة (١١)

الصفحة ٤٧

معنى «النصر»:

قد يكون المعنى المناسب للرواية أن «**النصر**» ـ بمعناه المتعارف ـ كان في متناول يد الإمام لو أراده كيفما كان، ولكنه لم يكن يريده إلا انتصارا في الدين وعلى أساس من أصوله فكل من «**نزول النصر**» و«**التخيير**» يعني ـ بهذا ـ أمرا حاصلا وفق نظام اللّه المعروف في الخلق ...، فبهذا يكون معنى الرواية شبيها بما في (الخطبة ٤١) من النهج إذ يقول: «**قد يرى الحُوّل القُلّب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين**»

التعليقة (١٢)

الصفحة ٤٩

مقطع من زيارة:

كشاهد على أن الحسين عليه السلام معلم وبابٌ للدين لاحظ ـ مثلا ـ المقطع التالي لزيارته المروية عن أبي عبد اللّه عليه السلام كما في البحار (١٠١/١٦٦) نقلا عن كامل الزيارات:

«السَّلاَمُ عَلَيْكَ ... يَا مَنْ رِضَاهُ مِنْ رِضَى الرَّحْمَانِ وَسَخَطُهُ مِنْ سَخَطِ الرَّحْمَانِ، السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا أَمِيْنَ اللَّهِ وَحُجَّةَ اللَّهِ وَبَابَ اللَّهِ وَالدَّلِيْلِ عَلَى اللَّهِ وَالدَّاعِيَ إِلَى اللَّهِ . أَشْهَدُ اَنَّكَ حَلَّلْتَ حَلاَلَ اللَّهِ وَحَرَّمْتَ حَرَامَ اللَّهِ وَأَقَمْتَ الصّلاَةَ وَآتَيْتَ الزَّكَاةَ وَأَمَرْتَ بِالْمَعْرُوْفِ وَنَهَيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَدَعَوْتَ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...»

هذا، وإني أرى أن من الطرق الجيدة للتعرف على الحسين عليه السلام شهيدا وإماما زياراته المأثورة ...، شريطة الانتباه إلى أن من الزيارات ما ليست معتبرة، ومن المتوقع أن يكون قد أقحم بشكل أو آخر ما قد يؤثر على مسار الزيارة ككل فتتشوّه بذلك إمامته ... غير أن ثوابتها التي تتكرر في كثير من الزيارات الواردة تكفي لتدل المستبق للخيرات إلى الحسين عليه السلام إماما وشرعة ومنهاجا...